مَزَامِير خَدِيجَة

قصص قصيرة

أحمد ضحية

دار بسمة
للنشر الالكتروني

أحمد ضحية

اسم الكتاب: مزامير خديجة

اسم الكاتب: أحمد ضحية

نوع العمل: قصص قصيرة

الرقم الدولي EBIN: 16-1-226-230416

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1444هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

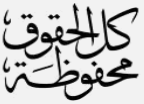

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

مزامير خديجة

قصص

أحمد ضحية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى عشيرّتي في "وديان الدّم"،

وإلى أهلي في البلاد الكبيرة..

إلى أصدقاء رائعين في مصر التي أحببت،

والى وجوه، لم يتبق منها سوى دفء الذّكريات القديمّة!

تداع

ما كان علينا أن نراهن عرافين، زّمن العرّافين قد ولى! ولم يبق سوى زمن جيل الشك!

"لم يبق لي، غير الذي لم يبق لي..

تعب المغني والمحارب.. فليستريحا.."

محمود درويش

توطئة

(مَزَامِيْر خَدِيجَة) واكتشاف عوالم ما زالت طازجة في الروح

شعبان يوسف (*)

أكثر من فرح ينتاب المرء عندما يكتشف أن مظلوماً قد أُنصف، وقررّت العدالة أن تُعيد له بعض حقوقه. وأنه على وشك أن يهشم القضبان، التي سيجت حريته، وبالتالي جماله وتشكُلاته.

هذا الفرح المتعدد أخذني رويداً رويداً، ثم بقوّة وأنا أقرأ هذه المجموعة القصصية المتميزّة: (مَزَامِيْر خَدِيجَة) للكاتب السوداني الصديق (أحمد ضحية).. وأسباب هذا الفرح –كما قلت– متعدّد لأنه في الآونة الأخيرّة التي تربو على عقدين، ساد اعتقاد أن الزّمن زّمن الرّواية، وطبق نُقاد وكُتاب وصحفيون هذا الشعار، على الحياة الإبداعية السردية في مصر والعالم العربي. وأصبح الاهتمام بالرّواية اهتماماً بالغاً ورئيسياً،

وأُقيمت مؤتمرات هنا وهناك للرّواية، وأنشئت مسابقات، ووُهبت جوائز. وصار اهتمام النُقاد الأول بهذا الفن.

وانتقل هذا الاهتمام إلى الكُتاب أنفسهم، فما من كاتب أو كاتبة يُصدر مجموعة قصصية إلا ولاحت له في الأفق "فكرّة رواية" فينتقل تماماً بكل آلياته وتقنياته إلى فن الرواية، وغالباً –دون عودّة– والشواهد كثيرّة، وتحتاج إلى فحص عميق.

وعادةً ما يكون الانتقال انتقالاً شكلياً، تحت وطأة الاعتقاد بأن الرواية سوف تدخل بكاتبها، إلى هذا العُرس المقام على مدى الوطن العرّبي ككل. والذي جذب له كل دوائر الاهتمام. لذلك كانت مجموعة (أحمد ضحية) القصصية بمثابة فرح أول.

أما ثاني هذه الأفراح وأسباب البهجة أن الكتابة هنا تتسم بطزّاجة غير معهودة، وكتابة ليست منهكة. فنحن أمام كاتب كبير يقدر على تطويع مفرداته وجملته في سياق متماسك، لينتهي بنا إلى (قصة قصيرة) أو (أقصوصة) أو (قصة طويلة) شديدة التميز. وهو قادر على المزج بين خبرّة الانتقاء وطزّاجة المنتقى، أي الإحكام الصارم وبكارّة الحكاية. ويستطيع أن ينقل لنا الحال التي تنطوي عليها القصة وأبطالها من وجع كان أم بهجة، وفي الوقت ذاته دون أن تفقد جماليات فن القصة

القصيرة.. هذا الفن الذي يعتمد على التكثيف والدّقة والحذف والإيحاء، في مواجهة التمطيط واللا تحديد، والإسهاب والشرح.

ومن التصدير الذي يحمل عنوان: (تداع) تتضح الخيوط الأساسية التي تنطوي عليها القصص، ففي هذا التداعي يعمد الكاتب أن يضمنه تعريفات عديدة مثل: (زمن العرافين قد ولى) ويؤكد على "أن جيلنا هو جيل الشك". ثم يهدي المجموعة إلى أهله في تلك البلاد البعيدة، التي تسمى :(وديان الدّم: دارفور..) ثم إهداء آخر إلى أهل البلاد الكبيرة (السودان) وإلى (مصر) التي أحبها، ولا ينسى الكاتب أن يقتبس من الشاعر العربي محمود درويش مقطعاً شعرياً يقول في مطلعه: "لم يبق لي، غير الذي لم يبق لي.. تعب المغني والمحارب.. فليستريحا.."..

ليس عبثاً أن تأت كل هذه المعاني في هذا التصدير، الذي أطلق عليه الكاتب "تداع". فهذه المعاني التي توحي بالغربة والاغتراب والنفي والفقد والتعب وإنشاد الراحة والشك وانتهاء أزمنة اليقين! كلها تتمدد بتفصيلات سردية وجمالية في قصص المجموعة.

ففي قصة (مَزَامِيْر خَدِيجَة)، التي حملت المجموعة اسمها، والتي يستدعى فيها الكاتب طاقة الفلكلور، وإمكانيات تطويع جمالياته لجماليات القص دون افتعال أو تزيد أو إقحام، نجد انسجاماً –كما يقول النقاد–

بين (المبنى والمعنى)، وامتزاجاً بين الشخصية وما تفعل وما تقول. فخديجة التي تحاول طوال الوقت –الذي استغرق عمرها كاملاً– أن تنأى بنفسها وروحها عن مواطن الزحام ومواطن الارتباك، يختار لها الكاتب أغنية –أظنها شعبية– لتتناسب وتتسق مع حالها.. تقول الأغنية:

(الزارعينا في كبد البوصة يّ يّ مو نجيض الطير كلي البرسوسة * الزارعينا في كبد الغابة يّ يّ مو نجيض الطير كلي الورتابة..)..

ويستطرد الكاتب: "وظلت هذه الأُنشودة تعزّية وحدتها، منذ ذلك الوقت. وكانت حين ترغب في فصل نفسها عن العالم حولها، تتوغل متسحبةً إلى داخلها، وتدخل في حالة لا شعورية، وتبدأ في ترديد أُنشودتها المحببة.."..

الشعور بالوحدة واللا أمان يدفعان خديجة للاحتماء بتذكارات شعبية، لتؤنس هذه الوحدة. إنها تقاوم بالأناشيد والأغاني ونصائح الجَدّة، التي (تخط الودع وتقرأ الكف وتضرب الرّمل وتفتح الكتاب..) رُبما يكون في كل ذلك، هذا الظل الذي يحمّي خديجة من هذه الحياة الجافة، أو الحياة التي تجعلها (صفراً)..

وفي قصة (أغنية لطائرِ الحب والمطر) تلعب (القُمرية) دور التلطيف، أو التخفيف بين بطل القصة وإيمي حبيبته.. هذا البطل الوهمّي والفارس المهزوم، الذي استيقظ من غفوته فانتبه لعصاه، التي تحطمت بفعل السوس والأرضة، ما هو إلا رمزاً لشكل حيّاة كادت أن تتهاوى! بل هي تهاوت بالفعل، ولكن البطل يحاول طوال القصة، أن يعتصم بالحب والود والوئام والنُبل.. هذه المعاني التي أصبحت نائية عن الحيّاة، ولكن الراوي ينشدها ويأمل في استقطابها، ويخلق لها مناخاً يمكن أن تحيا فيه.

ويُنهي أحمد ضحية هذه القصة بعبارات وكلمات تعبر عن هذا الإصرار، على معنى أساسي وهو (إن العالم يمكن أن يكون جميلاً..).. تقول الكلمات:

"كان المطر قد توقف منذ وقت ليس قصيراً. حنت إيمان رأسها في حياء. غردت القمرية كما لم تغرد من قبل، ثم طارت. تابعتها بنظراتي وهي تنسرب بجناحيها في الفضاء اللامتناهي.. تتضاءل.. تتضاءل أكثر فأكثر.. غابت تماماً واحتوانا الطريق.."..

ولا تفلت قصة(النوة) من هذه المعاني التي يريد أن يؤكد عليها الكاتب، وعندما أتحدث عن المعاني فأنا لا أقصد أن هذه المعاني منفصلة عن الجماليات، فلا يوجد معنىً مجرداً عن جماله وصوغه. وتماسك بناءه و رِقة أو حِدة ألفاظه، وسلاسته أو تراكيبية لغته. والكاتب يوغل في كل ذلك ك"مجرب قديم" قد خبر إمكانيات اللغة، وكيف يقود مقاليدها.

وفي القصة: "حالة جذب" يستخدم الكاتب خبراته بشكل رائع، وينسج عالماً شفيفاً بين رجل مقيم، ولكنه قلق. وصديقته البعيدة التي ودعها منذ زّمن، ولم يستطع أن يعيد بينهما العالم كما كان، فينسج من تلك المسافة، عالماً مليئاً بالشجن والشعور بالفقد والحنين، وربما الخوف وأيضاً هذا الوتر الدافئ المشدود بينهما. فعليه تعزف كل الألحان وتنطفئ.. كل هذه النيران المشتعلة بالروح، عندما يظلهما سقف وتحميهما جدران، وينهي هذه القصة بفقرة ليست موجعة فقط، ولكنها مبهجة أيضاً. ففي شقته الصغيرة ب " الأندلس" –كما يقول– أجلسها على حجره "وناما بعد ذلك متصالبين، يصلبان حرمانهما. عجف الزّمن.. جور النّاس.. وقسوّة الحيّاة.. خواء الغربة، وألم الذكريات.. يصلبان أوجاعهما المقيحة في وجدانيهما المنهكين.".. أيضا تنتهي هذه القصة إلى أن الخلاص من كل العذابات يكمن في الدفء.. في التواصل

الإنساني.. وفي الاجتماع البشري العادل. هذا الاجتماع العادل الذي لا يتحقق بسهولة ويسر..

وفي أقاصيصه القصيرة جداً، يبدو هذا الافتقاد للعدل وللتواصل وللدفء واضحاً جداً. إذ تنكشف هذه المعاني بشدّة..

ففي قصة (أطفال) عندما يصرخ الأطفال بسواد لون الإنسان وينادون (بونقا بونقا.. شيكولاته..).. يشعر بهذه العنصرية، التي تنبت عند الانسان منذ الصغر، فيتذكر وطنه وهو يتمتم (أنه ثمن الغربة!..).. وعندما يذهب إلى الحائز على جائزة (نوبل) لإجراء حوار صحافي معه، يكتشف أنه ليس عَلماً بل مجهول! فيتأكد تماماً أن العالم مفكك وغير متواصل وغير دافئ! فيشعر بالإحباط الشديد..

وفي قصة (أصدقاء) ذات المعاني تتكرر في جمل وعبارات توحي وترمز ولا تشرح ولا تسهب ولا تطيل..

تأتي قصص (أحمد ضحية) في لغة وكأنها لغة بكر، تبتعد كثيراً عن اليومي والمستهلك، فهو مغرم وعاشق للابتكار والنحت، وكما أسلفت يتناسب اللفظ مع المعنى تماماً. أنه كاتب موهوب وجميل..

أما فرحي الأخير.. فالكاتب يفتح لي بوابة للإبحار في مياه السرد السوداني، هذا السرد الذي تعطلت معرفتنا به في مصر لأسباب كثيرة، منها المتعمد ومنها العفوي وآمل أن نتعرف على هذه الأرض السودانية الحبيبة والحميمة، عبر هذه الكتابات الطليعية الجادة.

القاهرة، 2005.

ربيع عقب الباب[1].[2]

إذا قمنا بحذف السطر الأخير أو السطرين سنجعل من (تأملات شتوية) فصل أول لرواية قادمة، لأنها تحمل روح الرواية وتبتكر ما تريد وفق هواها، لا وفق تقنية سابقة لمفهوم القصة التي نعرف، إذ جاء الزخم واللغة الفياضة والنَيل من التاريخ ورؤية القاص حيال (مقتل عثمان) ونفي (أبا ذر) إلى (الربذة) حتى مات! ولولا روحة من الله سبحانه لأكلت جثته السباع!

التحمت بتأملات شتوية نصاً وفعلاً هنا، إذ جعل القاص من بطله أباذر جديد يتعامل مع الرسائل والذكريات. ثم عرج على بعض ملكاته فجعل له عيناً كزرقاء اليمامة ترى.. بل تكتشف الغامض حتى نِيل منها. وهذا بطله يتخفي تقيةً، فهو يعرف ولا يعرف بعد أن تبدلت الأمور، بل

---

[1] شعبان يوسف شاعر وناقد مصري، عضو اتحاد كتاب مصر، ورئيس منتدى ورشة الزيتون.

[2] ربيع عقب الباب قاص مصري، عضو اتحاد كتاب مصر.

تبدلت الأرواح والأجساد. وكأن القاص هنا يستدعي النشأة والارتقاء وأصل الكائنات!

الحديث طويل حول هذه القصة الرائعة بالفعل، بتلك اللغة التي أُحبها كثيراً! ولكن الفعل كان دائماً حركة من وإلى الشرفة أو الباب، أو تمزيق أوراق ليس هناك فعل بالمرّة.

وفي (مَزَامِيْر خَدِيجَة) قرأت زخماً وكتابة حميمة وبعض سحر آتي من هناك.. من أحراش أصابع أحمد ضحية التي تعودت أن تُعطي الغريب أو السحري أن جاز لي، وهو يعطي ملامح لحُلمها، ولبعض معاناتها وقدرتها على اختزال حزنها، الذي ذكرني بالكثير من كتابات (أدباء النوبة) عندنا هنا في مصر، وأيضاً هناك حيث كان الطيب صالح ورواياته القصيرة، لكن الحق أن أحمد ينتهج وحده هنا!

القاهرة، 2011.

كلمة لابد منها

هذه المجموعة التي بين يدي القارئ، تمنيت لو أنها اشتملت على كل النصوص القصصية القصيرة، التي كتبتها ما بين عامي 1988 و2011، لكن للأسف (الغالبية العظمى) من هذه النصوص، فُقدت خلال الترحال المستمر من دولة لأخرى، ومن ولاية لأخرى، داخل الأراضي الأمريكية.

عزائي أن كل هذه النصوص القديمّة الضائعة، قد نُشرت بين العامين المذكورين في الملفات الثقافية للصحافة السودانية، والمجلات الثقافية المصرية والعربية. ومحاولة تجميعها من أرشيف دار الوثائق المركزية السودانية، أو أرشيف المجلات العربية. أمراً عسير المنال بالنسبة لي، كمقيم بصورّة دائمة في الولايات المتحدة.

لكن من المؤكد أن ما تم جمعه هنا بين دفتي هذا الكتاب، يُعطي فكرة كافية عن مراحل ومسار تطوري في كتابة القصة بين العامين المذكورين.

وأخيراً أجد نفسي بغاية السعادة، وأنا أُصدر ما استطعت تجميعه من قصص، ترتبط بمحطات وذكريات هامة في حياتي في مجموعة أخيراً.

أحمد

تداعيات شتوية

هو الإحساس المقّيت بالوحدَّة، في هذا العالم المرعب، ما يفتحك الآن على "طاقاتِ" الحنين، منهوباً بذكرياتٍ عتيقة، تخلّلتها وجوهِ أصدقاء قُدامىٰ كنت تحبهم! ولطالما تمنيت في صقيعِ هذهِ البلاد، سماع أصوَّاتِهم، أو أن يكتبوا إليك ما يكفي، لتنقيةِ الحنين من الأسى!

لا زلت "تتعشَّم" أن يُطِّلَ وجه ما، لطالما انتظرته في عالمك "المغزّول" في الوحدَّة.. المعزّول داخلك، كرسائلِ البريدِ الوَّهمية، التي تَضّل طريقها، فتقعىٰ بين الأغبرَّةِ حزينة، بائسة يتآكلها انتظار قلق لمن يَفُض غِلافها!

يا صديقي الرِّسالة المهمَّلة كالأُنثىٰ العانسِ، كلاهما تتناهبه أشواق الانفضاض، وكلاهما يتكشّف غالباً عن خيبةٍ، بعد طول انتظار، فيتمنى لو أنه لازال منسياً ومهمّلاً، متوحداً في العزلة!

إنها لعبة الغُلاف.. الغُلاف الذّي يُحيطنا، ولا يورّثنا تمزّيقه –أحياناً– سوىٰ الألم. لماذا لا تكتُب إلى نفسك لتمزّيق هذا الغُلاف، فتهدّئ ما تثيرَّه الوحدة فيك، من إحساساتٍ بالغةِ الأسىٰ!..

كان "الغفاري" وحيداً، لا تؤانسه سوىٰ مشاعرِّه ككونٍ مهمل في غيابِ "الربَّذة"، حتىٰ قضىٰ في بردِ عزلته، متدفئاً بدوافعِ الهرَب، متجاهلاً الخيباتِ المنتظرَّة.

من بين تلافيفِ غفواتهِ السرّية، حاول تفادي الغيبوباتِ المباغتة.. نفض عن رأسهِ التموجاتِ الدَّاكنة، وهو يحاول تبرئةِ نفسهِ من كلِّ الذّكرياتِ المزعجة، دون جدوى.

رّنقَ –أو توهَّم أنه رّنقَ– بقايا الجراحاتِ القدّيمَة المتجددَّة، التي أبداً لم تندّمل، وهو يكرّر محاولةِ الكف عن لعبِ دّور "زرقاءِ اليمّامة"، والاكتفاء بالفُرجة علىٰ ذاتهِ، التي لم تعد هي ذاته–ذاتها.

في مثلِ هذا الطقسِ البارد، لا خيار له سوىٰ الاكتفاءِ بالاستمرَّارِ في التماسِ الدِّفءِ، الكامن في الأشياءِ حوله. فيما يطل علىٰ فضاءِ ذاكرَّته، ذات السؤال القدِّيم، متنامياً كاللبلاب:

”كيف تحوّل الخالدون إلىٰ فانين، ووحدة البشر الآدمية إلى هذا التعدُّد الرّهيب“..

ويزيد السؤال القدِّيم روحه القلقة قلقاً على قلقها.. هذا النوع الغرِّيب من قلقٍ وتوتر، ”الأشبه“ بتلكِ القشعرِّيرة الحارّقة، إزاءِ ”مسلّمات“ لطالما تهرّب من مواجهتها، مدفوعاً برغبةِ السلام النفسي، لروحه المنخورَّة بـ ”تسوّس“ لم يُبق سوىٰ علىٰ بقايا من دوافعٍ قدِّيمة، لمقاومةِ ما يلفظه التاريخ، إلىٰ الحيَّاة اليومية من إجاباتٍ متعسفة، تنثر رماد كيانه المنهك، إلى أقصى حدود الريح!

تناول إحدىٰ صوّره الفوتوغرّافية القدِّيمة، وتساءل:

”هل هذا هو حقّاً، أم أن انكسار الضّوء علىٰ سطحها الزّجاجي الشفاف، شكَّل فيها شخصاً آخر كان يشبهه!“

وهل كان يشبهه في كل شيء أم أن النَّاس فعلاً يتغيّرون، فلا يعودون هم ذاتهم بمرور الوقت!

هزّ رأسه ينفض خواطرّه على الجليد، الذي كسا عتبةِ الباب.. إنه شتاء البلدَّة الصغيرَّة أقصىٰ الساحل الشرقي للأطلسي الرهيب.. مع مقدمه تختفي تلك الموسيقىٰ الساحرّة المنبعثة بنعومة وألق من كل أركان الغابة،

التي تنكفئ البلدة الصغيرّة في حضنها الدافئ، تجترّ أحلام عشاقها.. يحل محل هذه الموسيقى، شهيق كحشرّجةِ الموت والأنفاس الذّاوية.. تصبح الغابة متناهية الزّفرات.. تختبئ الغزلان في أماكن سرّية، وتهاجر الطيور إلى بلدان مجهولة.. تتجمد الجداول وتصبح حافية من عشبها الأخضر.. البرّية اليانعة تذبل وتتساقط أزهارها الحالمة.

في مثل هذا الوقت من كل عام يدخل الناس في لجة انتظار الربيع.. متآكلين بقلقِ انتظارٍ ممض، لذوبان الثلج وانبعاث الحيّاة، من بين طبقاتِ الجليد المتداعية.. ليجددوا أنفسهم في التوحد مع الطبيعة المتوحدة في كل شيء، مشكّلةً كياناً واحداً كلحظةِ الخلق الأولىٰ!

كان الثلج قد تساقط لثلاثةِ أيامٍ دون توقف، إلا لريثما تلتقط سماء البلدة أنفاسها لبرهة، ثم تمطر مرَّة أخرىٰ ندفها ناصع البياض.

خطى علىٰ الممشىٰ بحذرٍ محاولاً تجنب الانزلاق، بل كان ممتلئاً بإحساسٍ زلق، فالجليد يغطي كل شيء: الطرقات.. الأسقف المحدودبة.. الشوارع الخلو إلا من مارَّة متفرقين، انكمشوا على ذواتهم!..

الأشجار التي تحيط بالبلدة تجردت من أوراقها، وصارت كأشباح أو هياكل، تثير رؤيتها في النفس إيحاءاتٍ غامضة، كإمساك الزّمن بالنّاس، من "أياديهم التي توجعهم!"

إحساسات هي مزيج من الارتباك وقلة الحيلة، كتعثر المشي في نفق مظلم، تنتصب المخاطر في زواياه العديدة!

استرد نفسه من تأملاته الشتوية، وهو يحاول إزاحة الثلوج عن صندوق البريد، وبأصابع مرتعشة التقط حزمة من الرسائل الباردة..

"ماذا ستكون سوى الفواتير الشهرية، التي لا يشعر حين سدادها سوىٰ بالوجع (الشبيه) بالآلام التي تنضح بها بيوت الطين، ذوات الأسقف الواطئة، في البلاد البعيدة!".. آلام كآلام تمزّقات الأفكار الكبرى.

لفت نظرّه غُلاف رسالة كُتب عليه العنوان بخط اليد، على عكس الأغلفة الأخرىٰ!.. جذبه من بين الرسائل.. كان خطاً جميلاً مألوفاً، بدى كالمكتوب بأصابع مرتعشة.. رُبما بسبب إحساسات لم يستطع صاحبها تفادي سطوّتها عليه..

لا يدري لماذا خطر على باله، في هذه اللحظة بالذات صديقه "أباذر"، فكل رسائله مؤخراً تنم عن إحساسٍ مرير، ينضح بالخُذلان والتصدّع، جراء تعرضه للأذىٰ المتلاحق من أصدقاء يحبهم!

في سنوات دراستهما معاً كانت ملامح أباذر.. "هذه الملامح التي تلازمه طيلة حياته" مرّسومة في أسىٰ غامض كأسىٰ الغريب! الذي علقته بلاده على صليب، ثم حرضت أشقياء أطفالها و سفهائها، على رّميه بالحجارّة وأكاليل الغار!

ترى فيما فكر الغريب لحظتها؟.. رُبما كان يحلم بحضنِ "المجدلية" التي لم تكشف تأملاته المبتورَّة، تحت وطأة النزف؛ عن ملامحها الملتاعة.. ربما كان يحلم؛ أو هو يحلم بحبيبة يلوذ إلى حضنها، ضد الأسىٰ وعذاب الصلب!

وكما توقع لم يكن خطاً مألوفاً فحسب، كان غُلاف الرسالة يحمل ختم البلاد الكبيرة.

ذكّره أباذر بصديقهما القديم "عثمان".. ثلاثتهم كانوا مسكونين بهواجس الوطن والتضحية.. في رسالة إلكترونية مؤخراً زفر أباذر في عمق حزن جديد:

"لقد أذاني كثيراً وعميقاً جداً.. لقد تغيّر عثمان، لم يعد ذات ذلك الصديق الحميم الذي تعرفه، فرياح التحولات التي ضربت البلاد الكبيرة، كنست كل ما ألفناه فيمن نحب!..

لم يعد عثمان كما كنت تصفه:

"كعذراء صغيرّة لم تألف تكوّراتها النامية للتو بعد، فتحس بالخجل إزاء كل نظرّة عابرّة"

تغيّر كرّيفي خبيث، حولته المدينة إلىٰ كتلة من الأذىٰ الكلي، فبات لا يحمل داخله سوى الحقد، تجاه أشياء يدركها ولا يدركها، وبإمكانه فعل أي شيء؛ في سبيل تحقيق ما يريد"..

عندما رد على هذا البريد الإلكتروني، لم يحاول تعزِية أباذر؛ في فقدانه لصديق قدِيم، فقد كان يُدرك؛ أن الانهيار المدوي للأفكار، التي لطالما آمنوا بها، لم يكن انهياراً لهذه الأفكار فحسب.. كان انهيارهم هم.. انهيار رؤيتهم لما حولهم.. الطريقة التي يحلمون ويفكرون بها..

كان انهياراً لكل شيء فيهم، حتى لطريقة مشيهم على الطرقات، في مدينتهم التي لم تنل سوى الوعود الكاذبة!

أصبحوا مشوشين؛ تُقلق الكوابيس من كل جنس ولون منامهم. لم يستطع عثمان تحمُل كل ذلك فترك كل ما هو منهار منهار!

كان يستطيع تصوُّر ما واجهه عثمان من تحدٍ، جعله "يختار" بين منطق "العقل" ومنطق "الواقع".. في مواجهة "المنطق الخاص" الذي صاغ حياته كلها منذ الطفولة الباكرّة.. ومنذ تفتح وعيه معهما على أفكار التغيير.

كان أباذر عادةً ما يحاول استفزاز شهيته للنقاش، دون أن يأبه إلىٰ أن هذا بالتحديد، أهم تغير في حياته.. "فقدان الرغبة في أيّ سجال أو جدل"، وتقبُل كل شيء بصمت.. وفي الحقيقة ليس تقبُلاً، بقدر ما هو إحساس مزمن بـ "اللاجدوى".

يحاول استعادة جزء من ذكرياته القديمة مع أباذر.. كلاهما غاص في خاصرته نصل مباغت، مجهول المصدر، فأصبح يعاني نزيفه وحده دون غضب، فقط إحساس عميق بمرارّات الماضي والحاضر، واليأس الذي كالجمر أو النار المشتعلة داخلهما.

تمدد على مقعده المفضل، بعد أن أزاح الستائر عن زجاج بلكونة الصالة ونوافذ المطبخ، لا يريد لساتر أن يعزّل بصره عن الطبيعة في الخارج..

يُحب مراقبة تساقط المطر والثلج أثناء قراءته لكتاب، أو مشاهدة التلفزيون، أو تأمل حياته المتهاوية..

ففي مثل هذا الطقس يفضل عدم الخروج، والبقاء برفقة خمره المفضل، ولربما تجذب اهتمامه في مثل هذه الأوقات الثرثرات الفارغة، التي تفتق مشاعره على دلتا لحبٍ متجدد.. كأنّ حبه القديم لحبيبات عبرن وخلفت كل منهن أثراً عميقاً، يتراكم الآن مكوناً هذه الدلتا، التي قوامها مشاعرهن المتوحدة في مشاعر حبيبة واحدة.

فتح غُلاف الرسالة وعيناه تبحثان في لهفة عن توقيع صاحبها.. كانت فعلاً من أباذر.. بدى له غريباً أن يراسله بالبريد العادي، وهما على اتصال دائم عبر الشبكة الرّقمية، وآخر بريد إلكتروني منه، حول صديقهما القديم عثمان، كرّر فيه ذات المفردة التي يُرددانها كل مرّة، للتعبير عن حالهما:

"بخير"

لكن كلاهما كان يعلم أنهما ليسا بخير، وربما أنه أفضل حالاً من أباذر، إذ سيخرج من هذه الدنيا بمحبة ابنه على الأقل، بينما لم يحصل أباذر حتى الآن سوى على محبته هو فقط.. لطالما سَأله:

"لماذا لم تجب عن سؤال المرأة في حياتك حتى الآن؟"

فكان يجيب بكل الإجابات التي لا تخطر على البال، إلا الإجابة الوحيدة التي تؤرقه بغموضها، الذي يلف الصّمت مجرد التفكير فيه!

"لكن هل هو متزوج حقاً؟!"

ألقى ببصره على البلكونة، يحاول استعادة بعض الذِّكريات القديمة.

تُرى ما الذي دفعه لكتابة رسالته بالبريد العادي!.. يقول إنها رسالة مختلفة، أراد لها أن تصل عبر وسيلة أكثر صدقاً.. غير معلبة.. وسيلة بإمكانها أن تحفظ شيئاً من روحه وانفعاله، وبصمات أصابعه ورائحة عرقه، وآثار الغبار الذي حوله، وحالته النفسية في اللحظة التي كتب فيها ما كتب!

لم يكن أباذر "بخير" كان مؤرقاً بمناظر الجثث والحرائق، وتداعي الحياة حوله في مغيب البلاد الكبيرة.. قال إنه ربما يستقيل قريباً من المنظمة التي يعمل بها، ويهرب مثل كل الذين هربوا أو سيهربون..

كانت كل تساؤلات ما قبل الانفجار الهيولي العظيم، والهبوط تشغل باله، فيتأمَل في الخطيئة الأولى:

"هل كانت خطيئة!"

ويتذكر حوارهما القديم المتجدد:

"فتحت ثمّرة الشجرّة وعيهما إذن على سوآتهما، فتغطيا بأوراق الشجر!"

"سوءة؟ ولماذا هي سوءة؟.. تخيل أن يكون جزء من جسدك سوءة!"

فيتذكر إبن الراوندي في الزمرد.. "ربما أن لعبة البريد العادي، وقلق انتظار الرّد، هذا القلق المضني والتحفز في توقع ردود رُبما تكون مخيبة.. ربما أن هذه اللعبة راقتني! وحسمت ترددي وبدأت في الكتابة إليه دون أن استهل رسالتي بالعبارة المعلبة: [عزيزي أبا ذر]"

قادته لعبة الرسالة إلى التساؤل:

"هل فعلاً لديه صديق اسمه أبا ذر.. وهل.. "

لم تمنحه تأملاته الشتوية أيّ إجابة شافية، فهرب إلى كاساته المعتقة يرتشف الحنين.. فيمضي به الحنين كموجٍ هادر، يقذفه بين أنياب أغانيه الحزينة، التي تنغرز هي الأخرى في شراييننه.. تشد أوردته تعزف موسيقى أشد سرية من حقيقة الوجود!

موسيقى غامضة لمغنين مجهولين، جابوا كل مدن الخطايا، فراودت شهواتهم حبيبات كالعصافير المهاجرّة من المواعيد والوعود، إلى أوكار الشعر والمنفي، في شتاءات وثنية وسنى كهذا الشتاء الحزين. كتب إلى أباذر عن الروتين، وصديقهما اللدود ابن الراوندي، وعن تلك الشجرَّة التي كانت تنمو في حواراتهما القديمّة.

"بل شجرتان.. واحدة للمعرفة وأخرى للجهل. واحدة لإرادة الاختيار، والأخرى للا–اختيار"

"بل واحدة للحياة [الخلود] وأخرى هي شجرّة الموت [الفناء]"

"المعرفة هي جوهر الحياة، فلا خلود دون معرفة"

"الصحيح هو أن وجود شجرتين منحنا حق الاختيار بينهما"

يلوذ أبا ذر بصمته العميق الذي تميز به. نوع خاص من الصَّمت، ليس سهلاً انتزاعه منه.

طيلة الشتاء ظل يكتب له عن المغامرات الصغيرّة والجرائر الكبيرّة، وذاكرتهما المشتركة في هذا الفضاء المعزول.. وظلت كتابته تحاول أن تستعيد في استماتة، حواراتهما القديمة، التي شملت حتى المقدمات الأولى

"لانتحال" واقع مغاير لواقع البلاد الكبيرة، و"إحلاله" لينتج فيها كل هذا الدّمار المرعب والجنون.

كانت خيوط النور تغسل آخر ليالي شتاء البلدة العتيقة، التي استفاقت للتوّ من تابوت الثلج الكئيب، فأخذ ضوء الشمس يسند جُدُر البيوت.. هياكل الأشجار.. الفضاء الرّحيب للبلدة الصغيرة، التي تبدت عن مفاتنها فيما تبقى من بياض الشتاء الناصع، الذي توحي بقاياه في فتاتات الجليد المتشظي على الطرقات بأشواق مرتقبة، تحاول الانعتاق من حبس أكثر الفصول قسوّة، وتنكفئ في أنفاس الربيع الحميم، على ذكريات الصيف الماضي، والمصايف الملتهبة بأشواقِ المحبين. كانت البلدة بكل كائناتها تستعد لربيعٍ جديد.

قرأ ما كتب عدة مرّات، ثم خطر بباله لسبب غامض أن يمزّق كل هذه الأورّاق، التي أنفق في كتابتها شتاءً كاملاً.. مزّق الأوراق إلى قطعٍ صغيرّة، ثم كوّمها في المدفأة، التي كانت لا تزال مشتعلة.

برينسس آن، ميريلاند

شتاء 2008.

اصطكاك في شَرخِ المشروح..

وأنت تُحدِّق في المرآة، تكتشف للمرَّة الأولى أنك أصبحت طاعناً في السن!.. لقد بلغت سن النبوّة يا رجل، دون أي إنجاز أو شعور بالرِضا، سوى الإحساس المزمن بـ"الاصطكاك".. ولهذا السبب بالذات أنت رجل كئيب!

وما يزيد إحساسك العميق بالكآبة هم الآخرون! خاصة عندما يحاولون تفسير الماء بالماء! لظنهم أنك لا تفهم أن الماء إنما هو الماء الغني عن التعريف ذاته!

لكن ماذا تعني بـ"الاصطكاك".. قطعا أنك لا تعني احتكاك الركبتين إحداهما في الأخرى، من شدّة البرد؛ دون أن يكون هناك ما يدفئ، و يجنبك هذا الإحساس المقيت بـ"الاصطكاك!" وربما أنك تعني معنى أكثر عمقاً، من معنى هذه الكلمة في الإنجليزية و التي تُكتب كما تُقرأ: Stuck إذن أنت تبحث عن معنى يتخطى حدود ما تعنيه في مخيلتك

كلمة "استك" من التصاق، إلى الانحشار في مأزق لا تألو جهداً في الإفلات منه، ثم لا تعود من الغنيمة سوى بالإياب!

وأيا يكن المعنى المقدس "للاصطكاك" بالنسبة لك، فأنت في الواقع لا تعدو أن تكون سوى رجلاً "مصطكّاً" ومع ذلك اسمح لي أن أشرح لك شيئاً بديهياً حول الاصطكاك، أؤكد به خيبة ظني فيك بأنك: لا تفهم ما أعنيه.. فأرجو ألا تنزعج من هذا الظن! الذي يحيق بك كرجل "مصطك!".

إذن سأُمارس هواية الآخرين في الإسهاب في الشرح!.. تخيل نفسك الفتى "فلورنتينو آزرو" عاشق العذراء الجميلة "فرمينا!" في :[الحب في زمن الكوليرا].. تخيل أن فرمينا، في لحظة تجلي نادرة وخارقة وسريعة كالبُرهة الخاطفة، رفضت علاقتك بها؛ لاكتشافها في اللحظة البرقية هذه؛ أنك مجرد طيف أو وهم!.. أي أنك مجرد "معنى" رومانسي حالم غير متجسد "مادياً!".

ثم تخيل أنك ابتداءً من لحظة رفضها لك، تُنفق أكثر من نصف قرن من عمرك، منتظراً رحيل زوجها إلى العالم الآخر غير مأسوف عليه، حتى تتمكن أنت من إقناعها بالزواج منك! أي أنك ك"معنى" تنطوي على تجسيد "مادي"، بربك أليس هذا هو "الاصطكاك" بشحمه ولحمه!

أو تخيل أنك ذلك الرجل البائس في قصة ديستوفيسكي "حُلم رجل مضحك" والذي يستمد قدرته في ممارّسة البؤس من حياة دوستويفسكي البائسة نفسها. هذا الرجل المضحك يشتد به الحزن، لإدراكه الحقيقة –كما يظن– التي يجهلها كل الناس! وفي الوقت نفسه لا يدركون أنهم يعرفونها وأنه يجهلها!

حقيقة أصل الخطايا "الكذب" منذ غشت الحيّة حواء، حتى آخر دم سفكته قوى الطبيعة وعناصر الكون المدمرة! أو اصطكاكات البشر في الأحلام الإمبراطورية المروعة عبر التاريخ!

هذه الحقيقة التي يدركها رجل ديستوفيسكي المضحك، فيما يشبه الإسراء والمعراج أو رحلة أبي العلاء في "رسالة الغفران" أو حتى جحيم دانتي وكوميديته الإلهية!.. هذا المزيج في إسراء الرجل المضحك بما ينطوي عليه من تداخل السحر والخرافات في النزعة التقدمية –بمعنى أن تمد رأسك لقدام– هذه الاصطكاكة سمحت له بالتعرف على شكل من أشكال التفكير المنظم، وما يتيحه من فلسفة وعلوم مضحكة، خلص عبر تأملها إلى الحاجة للعلم كمصدر للحكمة التي تفضي للحقيقة، وهي الخلاصة ذاتها التي توصل إليها دانتي وديستوفسكي وفيكتور هوجو وغيرهم من أنبياء معلنين رسمياً أو أنبياء لم يتبنى ادعاءاتهم أحد!

فما هي المحصلة النهائية لهذا التقنين الصوفي: للعلم فالحكمة فالشعور بالرضا، الذي هو نقيض الإحساس بالاصطكاك؟!

المحصلة النهائية يا صديقي، أن كل ذلك يؤكد على شيء واحد: هو أننا مصطكون في كون مصطك، وليس ثمّة مخرج لنا من هذا الاصطكاك الكوني!.. ولذلك لن يصدق أحد "حلم رجل مضحك" بل سيتطوع الجميع ليشرحوا له كم هو مضحك، تماماً كاجتهادي الآن في محاولة شرحي لك: كم أنت مصطك بين هؤلاء القوم المصطكين، في حكاياتهم المحشوّة بالأكاذيب وأمجادهم الزائفة!

ولتُدرك مدى فداحة هذا الإحساس المزمن بالاصطكاك، تخيل أنك أنا.. وأنك أي (أنا) كثير الشكوى، تتذمر دائماً، لا شيء يرضيك! وتشك في كل الكلام الذي يدور حولك، فأنت لا تصدق الناس، بل أن رأيك فيهم سيء للغاية! للدرجة التي تتصور أن الكون سيكون أفضل دونهم، بما فيهم أنت طبعا!!

–لا تقل لي تعميم وStereotype وكذا، فهذا كلام يستهلكه المثقفون والميديا في محاولة السيطرة علي وعليك وتوجيه أفكارنا، وتصميم احتياجاتنا ورغباتنا– وإلا ستنسف فرضية الاصطكاك من أساسها، الأمر الذي يُعيدنا إلى نقطة البداية لنشرح من أول وجديد!

إذن تخيل أنك أنا، صحوت للتو من نوم متقطع، وكالعادة لا يخلو من الكوابيس والأوهام، وها أنت –أنا– تصنع كوباً ضخماً من القهوة الأمريكية، كل الدور الذي تؤديه بالنسبة لك، هو أنها تهيج طعم البن الحبشي، ليطفو على سطح ذاكرتك، مبدداً نوستالجيا القهوة!

و هب يا أنا أنك استرخيت مع قهوتك، إلى أن انتبهت أن الساعة الآن الثانية عشرة ظهراً، فخرجت لتتفقد البريد، ثم خطر على بالك أن تتصل على رئيسك الفيتنامي الضئيل في العمل، وتعتذر عن قدومك اليوم لأنك مريض –وفي الحقيقة أنت معافي، لكنك غير راغب في العمل من أساسه، وتعتقد أنه اختراع كريه– بالطبع الفيتنامي الضئيل لم يرد عليك، وأنت الآن تتخيل وجهه يحمر ويصفر عندما يجد الرسالة الصوتية، التي تركتها له، فهو لا يريد لأي من موظفيه أن يتغيب، خاصة في ظروف الطوارئ الحالية، بسبب العواصف الثلجية؛ التي روعت الساحل الشرقي، وهمت بأن تعيده إلى عصر الجليد!

وهب أنك كالمعتاد جلست إلى الكمبيوتر، اطلعت على الأخبار في سرعة مريعة، ثم فتحت الإيميل وحاولت أن ترد على بعض الرسائل – على الأقل– فلم تستطع كالعادة، إذ بمجرد أن تصل إلى هذه المرحلة، تشعر بفقدان القدرة على الاستمرار، فتنهض لتقعي في الصالة!

نعم تقعي. ماذا في ذلك.. أنها مفردة تعبر بدقة عن حالتك، فانت محتار ولطالما تخيلت الإقعاء مرادفاً للاحتيار، وليس الذّل، وعلى كل حال: كل شيء في هذا العالم يحاول إذلال كل شيء، وإياك أن تقول إن هذه نزعة سيكوباتية!

لنقل إنك فتحت وأغلقت التلفزيون مراراً وتكراراً، إلى أن استقر مزاجك على (الإقعاء) لمشاهدة فيلم سيمون أو 1-Simulation الذي يلعب فيه آل باتشينو دور مخرج سينمائي (فيكتور تارانسكي)، الذي هو في الحقيقة مخرج فاشل، يحاول إنقاذ مهنته، فيهديه أحد المبرمجين البائسين برنامج رقمي، لفتاة جميلة وجذابة قادرة على تمثيل كل الأدوار، والتأثير في مشاهديها.

هذه السوبر ستار المذهلة سيمون، تمكنت من فتح ممرات النفس البشرية، ليتدفق كل المخزون الأزلي للتراجيديا الرومانسية، والبؤس الاجتماعي في نفوس مشاهدين، يتآكلهم ترف الحلم الأمريكي!

انتزعت إعجاب كل هؤلاء وأولئك، الذين تُعبر حياتهم اليومية في الواقع، عن الفشل الإنساني الكبير، فيمثل لهم الاصطكاك في الإعجاب بسيمون، تعويضاً عن حياتهم الفعلية الكئيبة!

كل أنواع الميديا تريد إجراء حوار مع السوبر ستار سيمون، بل نسجوا حول علاقتها بالمخرج ترانسكي من الحكايات ما يكفي لإشعال نيران الغيرة في القارات السبعة، لا في زوجته فقط!

وهكذا بين ليلة وضحاها أصبح ترانسكي المغمور حديث العالم، وهنا يكتشف ترانسكي حقيقة وضعه الوجودي كشخصية مصطكة، باكتشافه أن سيمون صنعته وليس العكس، فيحاول استرداد ذاته بإتلاف برنامج سيمون الرقمي. لكن الذين أدمنوا مشاهدة أفلامها يشكوّن في اختفائها الغامض، وهكذا تُوجه له رسمياً تهمة قتل سيمون! ولا يخرج من السجن إلا بعد أن تنجح ابنته في استعادة البرنامج "سيموليشن ون" من براثن التلف!

صحيح أن بعث الحياة في سيمون من جديد أنقذ ترانسكي من السجن الرسمي، لكن لم ينقذه من اصطكاكته التاريخية الرهيبة. هذا السجن غير المرئي، فلا أحد مستعد أن يتقبل فكرة أن سيمون محض برنامج رقمي، وهي لا تختلف كثيراً عن فرمينا، كما أن معضلة فيكتور ترانسكي أسوأ من اصطكاكة فلورنتينو آزورو!

الناس ينزعجون من معرفة الحقيقة، ولذلك يتوارون خلف الأكاذيب.. وهذا هو جوهر الاصطكاك!

أنت مثلاً علاقتك برئيسك الفيتنامي الضئيل معقدة، إذ ليس مقبولاً أن يتلقى شخص أفريقي طويل عريض مرتفع، إلخ، مثلك.. الأوامر من شخص فيتنامي ضئيل مثله!.. هنا أنت تعتقد أنك لا تحمل أي مشاعر عنصرية بغيضة، ورجاء لاحظ مفرداتي قلت: "ليس مقبولاً".. تماماً كتلك المفردة الفقهية "جائزاً"..

المهم، أنك لم تصرح له بحقيقة شعورك تجاهه، لكنك كنت تدرك أنه يدرك ذلك، وإمعانا في تغذيته لهذا الشعور داخلك، يحكي لك حكايات غريبة، عن كيف هزم شعبه الأمريكان في فيتنام، بل ويزعم أنه شخصياً شارك في تلك الحرب اللعينة، وأنه الآن كمواطن أمريكي صالح راض عن نفسه تماماً، فأبناءه تخرجوا جميعهم من هارفارد، ويعملون في وظائف رفيعة، حتى أن أحدهم قنصل بسفارة أميركا في فيتنام، وأنه وأنه!

أنت بالطبع لا يعنيك أي شيء من هذا الهُراء الكثيف، ولذلك بعد مرور تسعة أشهر من الإصغاء اليومي للحكايات الفيتنامية الضئيلة والمروعة، قررت الخروج عن صمتك وانفجرت..

تركت العنان لغضبك، فقلت كل ما لست معتاداً على قوله من شتائم وبذاءات بأكثر من لغة –بالطبع أنت لا تعرف الفيتنامية– ورميت بكل هذه البذاءات في وجه الفيتنامي الضئيل..

بماذا شعرت لحظتها وأنت ترى زملاؤك الأمريكان المذعورين، ينحصرون داخل ذواتهم، والفيتنامي المرتاع يحدق فيك ببلاهة غير مصدق!

تناولت زجاجة مياه باردة وجلست على أقرب كرسي و"خلفت" رجل على رجل.. ثم لم يسألك أحد.. كنت بانتظار أن "يرفدونك".. لكن لم يرفدك أحد ولم يسألك أحد ولم تسأل أحد!.. الجميع في الواقع اصطك أمام هذه المشكلة العابرة!..

لم تكن هذه الثورة المباغتة في الواقع ضد الفيتنامي، كانت ثورة ضد نفسك لأسباب تبدو لك غامضة! فما خلفته هذه الثورة المباغتة، كان مزيجاً غريباً من الشعور المنحسر بقوّة داخلية، لكن ليس بأي حال من الأحوال ما يسمى بالارتياح. ما يؤكد أن المعارك..

أي معارك هي نفسها شكل بدائي جداً، من أشكال الاصطكاك الكلي العنيف..

تماماً كعالم الأقوياء في العالم أو حتى الضعفاء: هم مصطكون في حروباتهم الخاسرة ومغامراتهم الفاشلة، التي هي الوجه الآخر لكوارث وأوبئة العالم.. والأسوأ من كل ذلك الأحلام الإمبراطورية الكونية، التي عبر التاريخ تتحطم إزاء حجم الإنفاق الخارجي على الجيوش، التي تحرس

هذه المستعمرات، مقابل حجم الموارد الوطنية الفعلية، وهي موارد لا يمكن أن تكون كنتاكي أو مكدونالدز أو بيتزا هت، أو حقول نفط تكساس وألاسكا، وتجارة المعلومات معادلاً يسد فجوتها!

اكتشفت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ذلك، فانسحبت وتسحبت بحياء إلى حدودها الوطنية، وحجمها الفعلي كجزيرة معزولة في الأوبئة وكوارث الطبيعة والمحيط المجنون، الذي مثلما أشعل أحلام الرحالة والمكتشفين على ساحليه، أشعل كذلك أحلام الأباطرة والأنبياء، فيما يشبه الاصطكاك الكوني، الذي حملته الخرافات والأحاجي والأساطير والسحر، فالديانات والفلسفة فالعلم!

هذا الاصطكاك في حلم وحيد يعذب العالم! اكتشف الإسكندر لا جدواه بعد فوات الأوان، مثلما اكتشف القيصر ذلك في الرمق الأخير فهتف:

"حتى أنت يا بروتس!"

هو الحلم نفسه يُعاد إنتاجه فتتكون الإمبراطورية العثمانية ويتكون اتحاد السوفيات، ويتجلى الحلم في القطب الأمريكي، ويتنامى ملقياً بظلاله على أحلام متنامية في أجزاء أخرى من هذا الكون الحزين! كالحلم الصيني!

هذه الأحلام جميعها عبر التاريخ هي أوجه لاصطكاك الإنسان في الكون، لذلك انعتاقه منها دائماً ما يكون مدوياً، لكن بقاياها سرعان ما تتلاقى، ليتشكل الحلم من الشظايا التي خلفها الانعتاق المدوي –هذه الشظايا هي الحقيقة المتناثرة– التي تشكل حلقات جديدة في مسيرة الاصطكاك، الذي يبدو بالضبط كحلقة جهنمية لا تنتهي!

في ظني أن هذا الإسهاب في الشرح –أنا غير مهتم البتة إن كان قد أزعجك أو لا– ربما جعلك تقترب من معنى الاصطكاك، وماذا أعني بأنني مصطك في عالم اصطكاكي متعفن.. وعليه أتصور أنك بدأت تدرك، لماذا ظللت كل حياتي منزعجاً من ترثرات الآخرين وحكاياتهم المملة، وإدمانهم شرح البديهيات، أو تبنيهم وجهات نظر يظنون أنها الحقيقة، التي لا ريب فيها! وليست مجرد وجهات نظر قابلة للفحص والتلف! مثل هؤلاء يعمقون داخلك الإحساس بالاصطكاك!

ستقول لي لماذا لا ترد عليهم. وسأرد عليك. لأنني أعرف ماذا سيكون ردهم على ردي، وفي الحقيقة ربما لا أعرف، وفي الحالتين أنهم كطواغيت صغار، يضيقون بأن يناقش مصطك مثلي آرائهم المقدسة، ولذلك يسهبون في الشرح، الأمر الذي يزعجني كثيراً!

برينسس آن، ميريلاند

2010

أصدقاء

على حافة الحلم المنهار، في زمن متداع، تعرفوا عليه، وتعاهدوا في صمت على "معنى الصداقة". ربما، ما يُحكى عن صولاته وجولاته في السياسة وكتابات الهتاف، هو ما دفع ثلاثتهم لمصاحبته..

بعد أن أطلق الأمن سراحه من آخر اعتقال. فوجئ باختفاء الصديق الأول، ونقل إليه الصديقين الآخرين:

"أنه يحرص على نفي أي صلة جمعته بك!"..

فلم يعلق.

أفصح عن انزعاجه من عدم زيارّة خطيبته له منذ خرج من المعتقل. وبعد تردد طويل من صديقه الثالث –الذي كانت عيناه تحملان إفادات غامضة، عن سبب عدم زيارتها له– أخبره:

”لقد تركتك لخوفها من عالمك غير المستقر. وعما قريب ستعلن خطبتها على صديقك!“

انطوى على حزنه وألمه أن يفقد حبيبته وصديقين في وقت واحد، فأخذ ينظر إلى الصديق الثالث بعينين لا قرار لهما! ويراقب محاولاته الدؤوبة لإثبات أنه ليس كالآخرين!

القاهرة، 2004

لاجئ

فتح باب الشقة، وهو يعتقد أنها تنتظره كالعادة، فوجئ بأنها غير موجودة. انتظرها وهو يكاد يتميز من الغيظ.

بعد منتصف الليل بقليل دخلت.. باغتته بالارتماء على حضنه وهي تقول:

"كنت في حفل وداع إحدى الصديقات، اللواتي سيسافرن غداً إلى أميركا.. وحدثت جريمة قتل.. صديقة أخرى قتلت حبيبها في الحفل.. و.."...

انتزعها من أحضانه مأخوذاً:

"قتل؟!"

"اكتشفت أثناء الحفل أنه خدعها، ولن يضيفها إلى ملفه في إعادة التوطين كما وعدها، بعد أن آوته وعملت في البيوت لتصرف عليه في

هذه الغربة القاتلة.. خانها مع أخرى، أضافها لتسافر معه بدلاً عنها، فقتلته..“...

ابتلع ريقه الجاف، وهو يبعد نظراته عن وجهها، الذي بدا له خبيثاً جداً..

القاهرة، 2004.

أطفال

في مثل هذه الساعة من كل يوم يمر غريباً بينهم. فيصرخ فيه الأطفال الأشقياء:

"بونقا.. بونقا.. شيكولاته"

ويسأله آخر:

"عمو الساعة كام؟"

يفهم أن المقصود هو أن ينظر إلى لونه الأسود. يضحك الأطفال في سعادة دون أن يتدخل أهلهم.. وأحياناً، في المترو في وضح النهار، وهو منتصب بلونه الأسمر. يتهامس شابين أو ثلاثة:

"هي الدنيا ضلمت كده ليه"

فيتذكر وطنه البعيد وهو يتمتم:

"أنه ثمن الغربة!"

القاهرة، 2003

نوبل

كلفه مدير التحرير بإجراء حوار مع الكاتب الحائز على نوبل. وبعد أن حصل على رقم التليفون، اتصل به.. وعند اقتراب مواعيد المقابلة وهو متوجه إلى الحي الذي يسكنه الكاتب الكبير.. تنازعته مشاعر وأفكار شتى، عن جيران الكاتب:

"لا بدّ أنهم يحبونه كثيراً" ..

وعن سكان الحي:

"لا بدّ أنهم يعرفونه كلهم"

في أول الحي سأل أحد المارّة بثقة:

"عايز بيت الأستاذ الكاتب الكبير..."

"انت متأكد أنه يسكن معنا هنا؟"

شعر بالإحباط وسؤاله يتكرر بطول الحي وعرضه، حتى تملكه التعب واليأس. وبعد أن أهدر وقتاً طويلاً وجد شخصاً واحداً فقط يعرفه!

الخرطوم، 1999.

حالة جذب

كان آخر لقاءٍ لهما، قريباً من الفندقِ، محل إقامتها. في أحدِ صباحاتِ فبراير القارسة. لم يشعر لحظتئذٍ بالبرد، فيده المحاطة بكفيها الناعمتين، تدفئانه، و تزرعان فيه أحاسيساً لا أول ولا آخر لها!

كان قد اتصل بها من الشارع، وجلس ينتظرها على أحد "البنشات" المطلَّة على مشتلٍ ناهض عند "شِفةِ" النيل.

جاءت تتهادى. جلست قربه. تبعثرت أفكارهما، وضاع كل ما أعده كلاهما من كلام، ليبقىٰ الصَّمت فقط، معبئاً بالدَلالاتِ، ومحاصراً بالرُّموزِ، التي تفوق احتمال المكان!

وعندما ابتعدا في اتجاهين متعاكسين.. توقف يتابعها ببصرّه، وهي تنأىٰ.. حتى غابت عند مدخل الفندق، دون أن تلتفت!

عبر المحمول قال لها:

"لا تترددي"

فهمست بما تسرَّب إلىٰ رئةِ المكان، ليتنفس أشجانه في زفرَّةٍ ملتهبة!

وهو في الطريقِ إلى شقتهِ الصغيرَّة في "الجيزَّة" وهي في المطار، اتصل عليها.. لكن كانت طائرتها قد أقلعت، تحملها إلى منفاها البعيد، مخلفةً ورائها رائحتها وملامحها في كل شيء حوله!

كانت قد جاءت تبصم على وجدانهِ بُعيد حنينٍ طال، محمَّلةً بالبشاراتِ والأُنشوداتِ الخريفية اليانعة، وكوعدٍ خصبه زَّمن غامض!.. فخصَّ به مكاناً أشدَّ غموضاً من لحظة الوجود الأولىٰ!

بحث عنها في الزّحام، حيث تنتظره عند محطةِ "المترو" يتفاعل فيها التوق والحنين مع الترَّقب الذي استطال، وتمدَّد في فضاءِ المكان والزَّمن! ليُعطى انتظارها معنىً كونياً عميقاً، موشىٰ بالتحفز والتوتر، ويفوح برائحةِ القلق المقيم، الذي يحجب شعورها بالمارَّة حولها: القادمين، والذاهبين والباعة المتجولين، رغم تفرّسها في الوجوّه الموسوّمة بالضجيجِ والفوضىٰ والارتباك!

تبحث في هذا الرِّكام عن وجههِ الأليف.. وجههِ الذي تركته خلفها، في الخطاباتِ والصُوَّر والرَّسائل الإليكترونية!

وجههِ الخارج من الصَّمتِ إلىٰ الصَّمتِ.. أمامها.. تحمله طيَّ وجدانها. عله يخرج من الزّحام فجأةً، متعرقاً بالوعدِ والمواعيد!

في غرفتها، تلَّمست ذِكرياتها القادمة. تحسسَّت مشاعرَّها، وهي تُلقي ببصرِّها على النِّيل المتململ، أقصى حدودِ الشتاء، نافذةً لقلبٍ يحيا في الأزل، تدخل منها عروس النيل، إلى عرشِ الخصوبة. يحملها الملائكة. لتدفئ الجنة بالشجن، وتخفف عن الخُطاة عذاباتهم.. وتأخذ من عذوبتها ما يكفي، لإخماد نيران الجحيم!

تنسج على الكورنيش الممتد كأفعوانٍ وأفعىٰ للربيعِ جلداً جديداً لهما، وهما يمارسان فعل الحياة، الموت والخصوبة!

نَضت عنها ترقبها وهي تضغط أزرار هاتفها الأُنثوي:

"لقد وصلت بطائرةِ المساء"

"أحبك"

القاهرة مدينة غريبة عليها، لأولِ مرَّة تطأها.. مدينة غامضة ومجهولة!.. حيَّة ومرتبكة!.. يربكها انتظارِها له.. تربكها معاكسات المراهقين الرَّاشدين، ونظرَاتهم المتسللة إلىٰ بوحِ كنوزِها.. كنوزِهِ.. يربكها دفئهِ الذي يحاصر كل ذرَّة في كيانها.. يربكها: الترقب. الحذَّر!

اتصل عليها أكثر من ثلاث مرَّات، يسألها أن تُحدِّد موقعها بالضبط:

"في أي مدخلٍ من مداخلِ المترو؟"

هَروَّل بين المداخلِ المتباعدَّة لمحطةِ "السادات"..

لم ينَّم أثر مهاتفتها.. ظل منتظراً هذه اللحظة منذ وقتٍ طويل، وهو يستعيد المكالمات المطولة، منذ الصَّيف الماضي، عن الذي جرىٰ معهما.. عن الغُربة وحكايا الليالي الطويلة.. عن الحنين إلىٰ وطن دفء.. عن دفءٍ في ليالِ الشتاءِ البارِّدة!

في السادسة صباحاً بالضبطِ أزالَ لحيتهِ، وغسل عنه أثر الخمر والنيكوتين.. أعد لنفسه قهوَّة ثقيلة. ارتشفها بعجلة، وهو ينظر في ترقب إلىٰ عقارِّب الساعة، التي تمضي في اتئادٍ كأنها تتحداه!. فيما ينقل بصره بينها وبين سماعةِ الهاتف، إلىٰ أن تناهى صوتها من الضفة الأخرى في مدىٰ الشوق:

”أنا مستعدَّة للخروج“

”نلتقي في (محطةِ السادات)“

تعطر بعطرهِ المميز وخرج.

أحبها كما لم يحب من قبل، حاصرته بدفئها وعذوبتها، وهدَّت كل القلاع التي يحتمي بها.. دهمته خارجةً من تلافيفِ ماضٍ أسيان! التقيا فيه بهدوءٍ، وعلىٰ مفترقهِ مضيا في صمتٍ جارح!

لكنهما ظلا موسومين، بذاكرةِ الجروح المتجددَّة في شجنٍ ممتد، وحنين أبدي!

كالمطلق خارج التحولات.. خارج التغيير.. ففي المنتهىٰ، يتبديان كروح ناسك؛ ترتقي مدارجِ المحبةِ والسلام، تحتضن زهدها في حميمية وتؤدة! اقتنصتها عيناه من بعيد عند مدخلِ ”المترو“.. كآلهةٍ إغريقية، تبدت عن سحرَّها العميق ذاته، وكإثنين محمّلان بحنينِ جارف. احتضنها بقوة دون أن يابها للزّحام!

كانا حاضرين في الغياب، غائبين في الحضور.. وكالمغيبين في إغماءٍ طويل، لم يشعرا بالنظراتِ الدَهِشَّة للنَّاسِ، الذين التفوا حولهما..

سحبها من يدها إلىٰ داخلِ "المترو".. كادت المحطة تفوتهما!.. كانا هائمين في فضاءٍ هيولي شفاف، يفضي إلىٰ الأرخبيل الذي بداخلهما، حيث تمتد الجسور تصل جزر اللُقيا، ببابسةِ البُعد!

بشقتهِ الصغيرَّة في "الأندلس" تشبعت اللهفة برائحة عرقها.. تبددت الغربة.. أوجاعهما الثاوِّية في العُمقِ السحيق للخلايا والعصب، طفت كذاكرَّة لشجنٍ أزلي، وحنين مزمن ومواجد راحلة في أبدية جسدين متصالبين في اللانهاية!

"طوبى للغرباء!".. همس.. فتأوهت..كانت نيرانهما تزداد اشتعالاً ولا تخبو.. وكان ترقبهما لميقات رحيلها، يُشعل في القلب أشواقاً لا تنضب!

الجيزة، 2004

مزامير خديجة

قالت لها العرافات: "ستخرجين من عتمتك إلى إشراق، يَملؤك بالنور. فلا ترين سوى درباً أخضر، وجُدُر تسلقتها نباتات الخريف، وبين بين نهرين من اللبن والخمر، على ضفافيهِما تنهض أشجار المانجو، التي تُغرد بين تلافيفِها الطيور الملوّنه، وتجلِس تحتها الطواويس والغزلان!"

"ستخرجين من عتمتك إلى بوحٍ ندِي، يخاطبك الناس بالشعر، وتتكلمين بلغة العصافير، وتدركين أول الأنبياء.. تحكي له عن طي الزّمن، والمسافات، والوجوه المغبرّة، وعُكرّة خلفتها وراءك. ويبادلك الحكمة، ويبتسم ثم يسجد.. تنتظرينه وتنتظرينه، لكنه لا يرفع من السجود. وتغادرين إلى الإشراق!"

خرجت خديجة من الغرفة المعتمّة، دون أن تُعير ولد العرّافة الصغير، المتكئ على مواربة الباب، التفاتة. مضت في الدرب الملتوي، تتجنب المستنقعات والبرك الصغيرة، في الزقاق المظلم. وتخشى أن تباغتها كلاب

الحي على حين غرّة.. وهى تخلع ثيابها المهترئة ذات اللون الحائل، وترتدى قميص نومها الداكن، الخشن.. سألتها أمها بلامبالاة:

"أين تأخرت كل هذا الوقت؟!"

فأجابَت باقتضاب، وهي تستلقي على سريرها:

"أخذتني مريم إلى جَدتها العرّافة"

كانت صديقتها الوحيدة مريم، قد ألحت عليها، بالذهاب معها إلى جَدتها العرّافة، ذات المهارات المتعدِّدة، "فهى تخط الودع، تقرأ الكف، تضرب الرّمل وتفتح الكتاب.. بعد أن تضع أعواد البخور، على المباخر العديدّة، المنتشرّة في الغرفة الضيقة، الصغيرة، بضوئها الكابي، الموحي.. يتصاعد منها الدخان السحري، مُحيلاً الرؤية إلى ضبابية، متقشعة. مسرباً الخدر والإحساس بالوجع اللذيذ. الخفي بين ثنايا كل شيء.. حتى قطع الأثاث العتيقة!"

كانت مريم دهِشة من السؤال، الذي يطرحه حال خديجة، فهجِست بالإجابة عن هذا السؤال. بإحضارها إلى جَدتها، (ولية) الله الصالحة بنت يونس، التي وُلدت مختونة، وعزفت عن طلب الرجال، إلى أن تقدم

بها العمر، وصارّت من القواعد.. لكنما، لم يخط عليها شيب، وماء شبابها لم ينحسر. إذ لا تزال نضرّة، كوردةٍ يانعة!

عندما حدّثت مريم جَدتها. تبسمت الجَدة عن أسنانها الناصعة، المكتملة، ولم تنطق بحرف، في البَدء رفضت خديجة الذهاب، ثم لانت. كأن قوّة خفية نهضت فجأة، تدفعها دفعاً. وعندما خرجت من غرفة الجَدّة، كانت مريم قد اختفت من الصالة، حيث تركتها قبل أن تدخل على الجَدة، التي مضت بها في دروب ذلك العالم البرزخي، تدفعها دفعاً لقطع وهاده وسباسبه، إلى أن توقفت عند شجرّة (الهجليج) في المنتهى، فتركت خديجة تسير وحدها كطيف سابح في بحرٍ من النور الكلِّي!

لم تبحث خديجة عن مريم، وغادرت بيت الجَدة في عجلة، وهي تتعثر في قطع الأثاث بطريقها. دون أن تشعر بها. إلى أن لفحها تيار هواء بارد، فأدركت أنها في منتصف الزقاق، المفضي إلى الشارع الرئيسي.

كانت خديجة منذ طفولتها كغزالة نافرة، فعندما تبدأ الفتيات في لعبة "الحجلة أو عريس وعروسة، إلخ.." تقصي نفسها ك (كبجعة) على ضفاف بحيرّة شاسعة.. تتركهم يمرحون وحدهم. وتراقبهم وهي تُنشد أغنيةً رّيفية حزينة، عن الليل والقمر والمطر.. وظلت هذه الأُنشودة، تعزِّية وحدتها منذ ذلك الوقت. وكانت حين ترغب في فصل نفسها عن

العالم حولها، تتوغل منسحبة إلى داخلها، حيث تدخل في حالة لا شعورية، وتبدأ في ترديد أُنشودتها المحببة، بصوت عميق مليء بالأسى واللوعة.

كأنه طقساً بكامله، تؤديه جوقة من الرّهبان.. إلى أن يخترق صوت مريم كالمعتاد، عالمها الطقوسي البديع وهي تغني خلفها!

هكذا تشرخ مريم عالمها في كل مرّة، فلا تملك سوى أن تنظر إليها بمحبة. وتمسح حبات العرق من وجهها، وتبتسم دون تعليق!

سنوات غربتها تمضي بخطى وئيدة، كتسحب الشمس شيئاً فشيئاً، قبل أن تغيب. وطفل مريم التي أرسلت لها صورته –في السنة الأولى لولادته– يكبر. يصير صبياً وسيماً. تطل شقاوّة أمه من عينيه. تبتسم خديجة عند هذا الخاطر، وتخبئ آخر الصّور –التي أرسلتها لها مريم قبل شهر، للصبي الذي صار شاباً أليف الملامح، صبوح الوجه– في إطار مذهب حذاء التسريحة.

في غربتها المترفة، تنفتح حياتها على بوحٍ قديّم، ظنت أنها خلفته ورائها.. بوح يطل برأسه من رّحمِ الماضي، بين آونةٍ وأخرى.. يخز رّغباتها

الغامضة: التي ليست لديها فكرة واضحة عنها، فقط محض رّغبة في التلظي والتشظي.

تخرج من هذه الوحدة، إلى صلوات سرّية طويلة. تختمها بتلك الأُنشودة التي تحبها، دون أن يخترق صوت مريم عالمها الطقوسي ويفسده.. تتفجر كوامن شجَنها المحاصر بوجهٍ غامض، تعرفه ولا تعرفه.. يجئ من مكان ما بملامحه المبهمة، من خلف ضباب المغيب، لحظة ما قبل الفجر الغامضة.. فيصبح كيانها كله مشدوداً كوتر كمان، عميق الجرح والآهة. أسيان كندى فجرٍ شاحب!

يخرج إبن مريم من الصورّة، يعزف حتى تكِّل يداه من العزف المنفرد، فيتوقف عن العزف، وتخرج مريم، من سطور الخطاب.. تشد الوتر – وجدان خديجة– وتعزف نغماً مألوفاً، عن الشجن والترقب والأحزان، فتهتف فيها بكل التحفز العميق: "أنه هو!".. فتتوقف عن العزف.. تستند على ساقِ النخل، منهارّة. تدخل فيه، تتلاشى!.. وعبثاً يطول انتظارها لخروج مريم!

كانت مريم قد احتضنت ابنها، وغابت في سطورِ الخطاب..

تعيد خديجة الصورّة إلى التسريحة، تتناهبها الهواجس والظنون، فتحترق بنيران الأسئلة، إلى أن يأخذها النوم، وتمضي بها الأحلام إلى عالم مضيء..

تتلفت حولها لترى مصدر الضوء، وعبثاً تبحث.. إضاءته من اللا مكان: لا شرق. لا غرب، لا شمال أو جنوب.. تتسلق حائطاً أخضراً. يبدو لها ناعماً. وتسبح بعده في نهر الخمر. تتشرب مسامها بالخدر. وتتسع رؤاها ورؤيتها. فتدرك الضفة الأخرى منهكة، وهي بين الصحو والنوم، تحط على كتفها يمامة، وتقترب غزالة، فتجلِس إليها في حنو.

تحكي لها عن الذي وجدته مُلقى على شاطئ البحر، وحيداً، ينضح بالعذاب. فسقته من ثديها..

"كان ينضح بالعذاب!".. تؤكد،

فتقول اليمامة: "العذاب غسول الصالحين!"..

وتحلق، تحلق.. لتجد خديجة نفسها بين منزلتين!

لطالما حلمت في تلك النّهارات البعيدة، بوجهه غجري الملامح. يأخذها من قلب "حلقة الذكر"، ويمضي بها في مسارات قائظة بالتوجس، مشحونة بالمغامرة، بين احتمال موت جدير بحياتيهما، وحيّاة لا تدركها تلك الهواجس، التي عانتها في أسى والتياع، بانتظاره المضن!

كطاقة بعث –كانت حياتها– تخرج من قلب دهاليز التاريخ وأزقته وحواريه، في مدنه المدفونة.

طاقة تتفجر هكذا، كبركان. تجتاح حممه كل شيء. تدفعها دفعاً لارتياد عوالم لا تدركها. فقط تحسها. وتكاد تتلمسها. بأناملها التي ترى ما لا يُرى!..

حاولت أن تغلق قلبها دونه، لكنه ينفتح على شبح وجهه، غامض الملامح. وجهه المحزون. بخذلان حوارييه. وخيانة الصديق القريب. وجهه المندفع من عالم سَرمدي بعيد، بعيد. لا تدركه الأبصار..

فتهتز خديجة كنخلة في مهب الريح، يحاصرها الأعصار.

في غمرّة الإدراك لوجودها غير المدرك.. تمضي في رحاب عالم تصله ولا تصله. وإذ تصله لا تجده. وهو فيها. وهي فيه. يتماهيان. فلا يصبحان

واحداً. بل صفراً. مركزاً للواحد.. وواحداً على هامش الصفر.. (تتوحد) فيه.. يتلاشيان معاً ولا يعد لهما وجود: (صفر).

وخز شفيف وشقي، يجبرها على طرد هذا الخاطر، وخز يتكوّن كدّمل. يتحفز للانفتاح على نافذة متربّة. بتعاقب الفصول.. لثمّة خفية تنزعها من مكانها، تلتف حولها، وتستكين.

خدر، بلسم يهدئ صبوتها. عذابها الجُرح. وتترقب وجهه أكثر، وجهه الغامض يلوح من شفق المغيب فجأة، كما صعد فجأة، تاركاً صالبيه: حيارى، وهم مروعين مما شُبه لهم، في ذلك الفجر الذي ينذر بالمخاوف والظنون!

يمضي بها، يعلق أحلامها في الغيم ويعزف على الكمان، أغنية الانتظار التي طال انتظارها.. الجُرح العذّاب.. لمخلِصها من عذاباتِ الوصول..

"العذّاب.. العذّاب، غسول الصالحين"..

تضج بالأنين.. الشجَن وتأوهاته. ألم الغربة القاحلة واحترَاقاتها. هذا الموت الذي يدنو منها، ليقودها إلى (الفناء)، مبدداً تصوراتها.. ذاك الوجه الغامض، الذي يتبدى عن أوتارِ الكمان، في تلافيف الشجن عصى البوح.. يقلق وحدتها.. تتشظى به، فيمضي أكثر لوعة والتياعاً،

ويمضي ولا يجيء.. يغيب في سرمديته.. وتحت وطأة الانتظار تغوص في أرخبيل شائك. يدفعها الشوق. تعبره ملأى بالجروحِ المتقيحة، تتمدد تحت نبات (اليقطين).. تتشكل معهما (هُوية واحدة):

"محض نور"..

أطل وجه العرافة المقعدة، بدت منتصبة! تتقدم تجاه خديجة ببطء، تعبر إليها من مكان بلا ملامح، حيث تقف في الغياب.. تبدل وجه العرافة، حل محله وجه إبن مريم شاباً فتياً، متلفعاً ببُردة الكتان، الناصعة ذاتها.. تقدم منها فاتحاً ذراعيه.. لحظتها كانت أحلامهما (هي ومريم) قد غلب عليها الغموض والألق.. كان قد اقترب منها. استحَالا إلى لا شيء. تبددا في الضوء، الذي يغمر أسقف البيوت الواطئة، الشجر، أوكار الطيور، جحور القوارض، حظائر الحيوانات الأليفة ووجوه المارّة.. عابري السبيل..

تتلاشى ذكرياتها القديمّة، لتتشكل اللا ذكريات. يتلاشى الحنين إلى الحنين. ذكريات الطفولة، شارع البيت، أشجار الحوش الكبير، قهوة منتصف النهار، الطريق إلى محطة المواصلات وعاصمة بلادها الملبدة بالحذر.. حنينها لأسرتها، لعالمها ذاك.. النّاس والأشياء.. يتلاشى كل شيء!

يتشكَّل فقط وجه الحبيب، في بُردته الكتان الناصعة. يقترب شيئاً فشيئاً من سطح عالم الحنين المنهار.. ليحل محل مركز وجودها وكيانها وحسها. يلعبان اللُعبة ذاتها: يكر فتفر. تفر فيكر.. و يدهمها ليلاً ليخطف منامها، ويقطف وردة جُرحها، ليغذي الحنين، من بوحِ تلك اللحظات الغامضة، التي رُبما عاشَاها أو لم يعيشَاها معاً، أو عاشتها خديجة وحدها!..

فقط تشعر خديجة بمريم تتقمصها، وابنها يحتضنها حتى تئن ضلوعها. ويغلبها التمزق والإرهاق، فتغرق في النّوم..

أحلامهما (هي ومريم) غلب عليها الغموض والتوجع، المستمد من أعماقِ غربتهما، ركاميهما.. البلى الذي حاصرَهما، وكل التخثر الذي حاولتا تمزِيق أغشيتِه، للإفلات من تبدل وتبدد الزمان والمكان، والشروع في الحلم!

القاهرة، 2004

تجليات الميرم كلثوم

عثر الحلاج، ولم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو أدركته لأخذت بيده.

الإمام عبد القادر الجيلاني

كنت واقفاً أمعن فيهما النظر، إلى أن تلاشيا في الشارع الخالي؛ إلا منهما. فرددت بصري؛ وأنا أشعر بميدان (التحرير) يمتلئ فجأة بالنّاس، ويهيمن الضجيج على شارع (القصر العيني). والزّحام يعيق حركة المرور، في الشارع المفضي إلى (طلعت حرب).

كانت الحيّاة قد عادت إلى طبيعتها، في اللحظة التي تهشمت فيها طبيعتي، بعد أن دهستني عربة النقل الكبيرة وسَاوتني مع الإسفلت!

وحتى الآن لا أدري، هل ما حدث أمامي حقيقي! أم هو وهمٌ تخيلته؟!

هل الميرم كلثُوم؛ التي عرفتها في طفولتي، هي ذاتها الشيخة كلثُوم. التي اختفت أمام عيني؛ قبل قليل؟ هل هي ذاتها! التي غيرّت مجرى حياتي عندما دخلتها فجأة في ذلك المساء، عند مدخل ضريح (السيدة زينب؟!).

هل هي ذاتها التي غيرّت مجرى حياتي مرّة أخرى، لحظة رأت عبد الرحمن ود التويم فاقتربت منه؛ ومدّت أناملها تُخاصر أصابعه ومضيا معاً، ليتلاشيَا في شارع القصر العيني؟!

كانت الشيخة كلثوم منذ عرفتها، تكتفي عن سؤالي بالنظر إلى بؤبؤ عيني، تعبره إلى جوفي فتدرك حقائقي وتلوح لي بها! فكنت أرى نفسي في دقائقها ورَقائقها التي تعبر بي، تلك المسافة الكامنة في عجز اللُغة وقصورها، عن ترجمة نفسي بهذه الدقة المتناهية، التي تلوح في إيماءات الشيخة؛ وإشاراتها. التي تفكك ما استغلق داخلي، وتبوح برموز باطني؛ المفعم بالتلوِيحات.

فأرى نفسي كالشّمس: ساطعة، وحياتي تنساب فيها من الميلاد إلى المنتهى، عند شجرة اللالوب التي خيمّت عندها الميرم، تناجي ود التويم و غرابها الأشهب، وأنا اقترب منهما حاملاً قلبي على كفي!..

تنساب حياتي هكذا بإيجازٍ ورّحابة، محاطة بمكاشفاتِ الوصول، المنزهة عن مزالقِ اللغة، وسباسبها ووهادها؛ ومضايقها الوعرّة! –إذن، هكذا كان ما بيننا من أمر.. من المبتدأ إلى المنتهى!

أول مرّة جلست إليها، غابت عني، كأنها ترتحل في عالم لا نهائي. لا يمت إلى هذه الدار بِصِلة.. كانت هائمة. مغتربة في الزّمان والمكان. لاشيء منها سوى ثوبها الصوف؛ المطرّز بالريش وألياف الشجر.. لا أدري إن كان هذا الثوب يخفي داخله الشيخة كلتوم؛ أم يخفي شخصاً آخر!

كنت قد التقيت الشيخة كلتوم، قبل أيام عند ضريح السيدة زينب، واستقبلتني قبل قليل في دارها، وبعد لا تزال التساؤلات تتفاعل داخلي. ترى هل هي الميرم ذاتها: تلك (الدرويشة)، التي كنا نجلس إليها في الطفولة، بعد أن نعبث مع الغراب الأشهب؛ في شجرتها "اللالوب". والتي كانت تحنو عليه بحرصٍ شديد!

كنا نسألها ما يعن لنا من أسئلة، فتبتسم وتحكي لنا عن طي المكان والزمان و"المسيد" و"حيران" "الشيخ كوكاب العنقرة!" هل هي الميرم كلتوم ذاتها، أم يُخفي هذا الثوب الذي أجلس إليه الآن، شخصاً آخر لم تسبق لي معرفته!

كنت مرتبكاً وخائفاً.. وحائراً رُبما.. ورُبما مذهولاً ومسحوراً. وذاكرتي تحاول أن تستعيد عنها، تلك الحكايات المتناقضة، في تلك الطفولة البعيدة.

حلَّت الميرم كلتوم على حينا فجأة، واتخذت من تقاطع الشوارع في قلب الحي مكاناً لكوخٍ صغير، لا ندري متى شيدته!.. فجأة رأينا الكوخ الناهض في قلب ميدان التقاطع، كأنه آخر ما تبقى؛ من آثارِ حضارّة؛ اندثرت قبل آلاف السنين!

كانت الميرم ذات جمال ملائكي، وعينين اجتماعيتين ودودتين، وفيض من وداعة وسمت شبابها، الذي تجاوز سن العشرين بقليل –وقتها– وقد أضفي عليها ثوبها؛ المزيج من الليف والصوف والريش –وبشرتها القمحية؛ المشرَّبة بغبارِ السفر المستمر، الذي لم يستطع إخفاء يناعتها؛ كزّهرة بريّة. مرَّت عليها عاصفة؛ دون أن تذروها أو تكسرها– كل ذلك؛ أضفي عليها غموضاً وسحراً غريبين!

هذا الغموض والسحر؛ هو ما أثار حولها الأسئلة. التي حملتها إليها لجنة الحي، فردت عليها بهدوء ولطف:

”أنا الميرم كلتوم بنت دور شيت السلطان –ولكنني أيضا لبنى و ليلى وبثينة، فلم يكنّ يوماً سواي“

استهجن أعضاء لجنة الحي إجابتها، لكنهم عملوا –مع ذلك– على أن يتقبل الحي وجودها!

في البَدء تذّمر النّاس، ثم خفتت أصواتهم شيئاً فشيئاً، ثم تقبلوا الأمر على مضض، فصار وجود الميرم أمراً واقعاً في الحي. خاصةً أن أحد أعضاء اللجنة من ”أهل الحل والعقد“ قد عرض عليها الزواج –على نحوٍ غير معلن– فرفضت وعرض عليها آخر أن يفرد لها غرفة في داره –سراً– فرفضت ذلك أيضاً!..

وأخيراً تعاطف معها كل أعضاء اللجنة، بدفع من الرجلين؛ اللذان قدما عروضهما السرية السخية للزواج والمساكنة –هذه العروض التي لم تخرج إلى العلن، إلا بعد اختفاء الميرم– على نحو غامض!

تعاطف أعضاء اللجنة معها. وعملوا على دعمها، فأدخلوا بعض التحسينات على كوخها، واشتروا لها ثياباً لم تلبسها مطلقاً! وأتاحوا لها حمامات بيوتهم..

وهكذا أصبحت الميرم كلتوم جزءً لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي للحي، ومعلماً بارزاً فيه بشجرتها "اللالوب" وغرابها الأشهب، الذي لا يفارق الشجرّة أبداً! –كانت شجرة "اللالوب" هذه قبل أن تنصب "الميرم" كوخها تحتها: يابسة، وجافة منذ وقت طويل. و بمجئ الميرم اخضرت الشجرّة، وجاء هذا الغراب بلونه الأشهب، فاعتبر بعض عقلاء الحي المتبحرين في العلم، أن تلك "كرامة ولية صالحة".. صارت الميرم إذن جزءاً من الذاكرة العامة للحي، الذي بدت كأنها ولدت فيه!

أخذت الميرم "تخط الودع" للصبيان والصبايا، الذين يزورون كوخها. وتبيع "النبق" و"القنقليس" و "الدوم" للأطفال، الذين يتجمعون حولها في العصارى خارج الكوخ، تحكي كل الحكايا التي حكتها لهم من قبل، مراراً وتكراراً دون أن تكل أو تمل!

فجأة بدأت الحكايات حول الميرم تنطلق، لا أدري: هل تزامن انطلاق هذه الحكايات، بعد حلولها المفاجئ بقليل، أم بعد ذلك بوقت ليس بالقصير، إذ روج الرجال –خاصة أولئك الذين في لجنة الحي– أن الميرم نزحت من أرض بلادها، بعد أن ضربها الجفاف والتصحر –وبسبب الحرب الأهلية أيضاً– فعندما مات أهلها بسوء التغذية والمجاعة، لم تجد بداً من مغادرة ديارها الخطرة، فضربت في الأرض؛ حتى أستقر بها المقام

في هذا الحي. إلى آخر الحكايات من هذا القبيل! والتي تم اعتمادها؛ رسمياً كحكايا صادرة من السلطة العليا في الحي.

لكن كانت هناك حكايات أخرى فاعلة ومؤثرة، رُغم أنها لا تُعبر عن وجهة النظر الرّسمية للحي، هي حكايات النُسوّة؛ اللواتي أخذن يؤكدن أن الميرم حلّت بالحي كلعنة، فهي هاربة من القتل، بعد أن أحبت أحد حيران الشيخ "كوكاب العنقرة"، في بلدتها التي في نواحي كردفان، وقرر أخوتها ثأراً لشرفهم قتلها –لكنها هربت– بعد أن قاموا بقتل "الحوار!"

وحكت نساء أُخريات أن "الميرم" ليست من نواحي كردفان، بل من الغرب الأقصى في دار فور.. حيث النساء متحررات، ويمكنهن السفر إلى أي مكان، وفي أي وقت دون "مُحرم"، وانها جاءت إلى هنا لتخطف أحد "أولاد البحر" من زوجته، فقد رأته في إحدى رحلات عمله؛ كسائق لعربة نقل بضائع؛ فأحبته وأحبها. وبعد سفره قررت اللحاق به، وبحثت عنه طويلاً إلى أن حلَّت بهذا الحي، لاعتقادها أنه يسكن فيه، وأن بصرها سيقع عليه لا محالة!

وهكذا نهضت قصص النُسوة في الحي عن الميرم؛ على أساس أنها تبحث عن رجل ما، فاخضعن أزواجهن وأولادهن لتفتيش يومي ورقابة صارمة!.. ولذلك عندما اقترب الشاب الغض والغامض المنكفئ على

نفسه والمتوحد: عبد الرحمن ود التويم؛ من حيّاة (الميرم كلتوم)، وأصبح لا يفارق مجلسها مع الصبية الذين يصغرونه كثيراً، ثارت حفيظة الصبايا، وشاعت شائعة بين النِسوة؛ في الحي: أن الميرم وود التويم، قد وقعا في المحظور!

ثم بدأت النسوة تحاصرن الميرم بأطفالهن، وتوعزن للأطفال؛ أن يهشموا قيلولاتها، برمي شجرّة "اللألوب" والغراب بالحجارّة. وأن لا يجلسوا إليها، ورميها هي ذاتها بالحصّى الصغيرة! وكنت أراقب كل ذلك بصمت! دون أن أقوى على فعل شيء!

كنت مشدوداً إليها، لكنني لم أقوى على فعل شيء! إلى أن اختفت الميرم فجأة، كما ظهرت فجأة، وتعددت الحكايات والروايات حول اختفائها المفاجئ! لكن كل الروايات أجمعت بين متناقضاتها، أنها فجر اختفائها كانت تحمل "صُرَّة" كبيرة، منسوجة من الريش الأشهب على ظهرها.

وظللت بعد ذلك لوقت طويل؛ أتساءل عن مصيرها، إلى أن غادرت البلاد؛ ورأيتها فجأة في هذه البلاد، عند مدخل ضريح السيدة زينب، الذي كنت أتردد عليه بانتظام كل جمعة؛ لأكثر من عامين ونصف، وأخذت أتساءل:

"هل هي الميرم كلتوم ذاتها، أم شُبهت لي فاستمرأت هي الأمر؟!.. وكأنها أدركت تساؤلي، فخرج من الثوب الذي كنت أجلس إليه؛ صوت رقيق مفعم بعذوبة الموسيقى:

"سقاني حبيبي من شراب ذوي المجد + فأسكرني حقا فغبت على وجدي + وأجلسني قربه في قاب قوسين سيدي + على منبر التخصيص في حضرة المجد + حضرت مع الأقطاب في حضرة اللقا + فغبت به عنهم وشاهدته وحدي (*)"

ثم تنهدت بعمق وزفرت ثم التفتت إليّ:

"عذراً يا علي!"

"لا داع للاعتذار يا شيختي"

لم أتوقف عن زيارة الضريح إلا منذ تلك الأمسية، التي التقيتها فيها عند المدخل. وأنا في طريقي إلى الخروج.. تعرفنا إلى بعضنا، واستعدنا بعض الذكريات البعيدة، وركبنا معاً الأتوبيس ذاته إلى "العتبة" حيث افترقنا، على وعد أن أزورها في شقتها، التي ما أن استقبلتني فيها؛ حتى دخلت في تلك الحالة من الغياب..

منذ ذلك اللقاء الأول عند الضريح، أصبحت الشيخة كلتوم صديقتي الوحيدة، في هذه البلاد الغريبة!

كنا قد تقاربنا كأننا أصدقاء منذ وقت بعيد، جمعتنا ذكريات منصرمة، وبقايا أطياف حميمة.. ارتدنا سوح شاسعة. تعرفنا خلالها على أدق حقائق أنفسنا.. تلك الحقائق التي لا تبين، إلا في الارتحال، والغوص بعيداً في نيران الغربة..

هكذا سرنا معا بأقدام الصدق والتجرد عن الأكوان الظاهرة، وتلك الذكريات المخزنة: وهي تنسحب إلى داخل كوخها، لتنجو من الحصى التي يرميها عليها الصبية، أو تسد أذنيها حتى لا تسمع الضجيج في شجرة "اللالوب" عندما تضرب الحجارة فروعها..

طارت بي الشيخة كلتوم بأجنحة المحبة، مخترقة سماوات الأحوال والمقامات، ولم تحط رحالها أبداً، إلى أن هتف بها هاتف:

"وتظهر للعشاق في كل مظهر + من اللبس في أشكال حسن بديعة+ ففي مرة لبنى وأخرى بثينة + وآونة تدعى بعزة عزت +ولسن سواها لا ولا كن غيرها + وما أن لها في حسنها من شريكة[1] "

[1] الإمام عبد القادر الجيلاني.

ما وطد علاقتي بالشيخة كلتوم، هو تلك العفة والرقة، التي تسم حياتها.. وكلامها في الجد والمزاح. وتلك الأحوال التي ترتادها، فتغيب عني. لكني أراها في خاطري:

"أين تمضي؟" – فتدهشني تلك المشاهدات وذاك الحضور الذي تغيب فيه. كنت أدرك أن روحها وقلبها، يتوقان إلى تلبية نداء الشوق، والتنعم بالوصال.

وما أن تنتفض وتسترد ذاتها الغائبة، متصببة بالعرق والغبار والطين، وتجدني لا أزال قربها، حتى تفتر شفتيها عن ابتسامة هادئة وتقول:

"أوصيك يا علي بالسخاء والرضا– الصبر والإشارة– الغربة ولبس الصوف– السياحة والفقر"

فأضحك وأنا أرد عليها:

"يا شيختي، لا أملك سوى قلبي وهذه الثياب. ولا أظنني أرضى. فقد تركت بلدي لأمر، وأصبحت في شأن آخر، وأظنني صبور على هذا الابتلاء. ولا أظن ثمة غربة أكثر من البعد عن الأهل والأوطان، ولا من هو أكثر غربة مني في الذات والأرض. وما عاد الصوف يصلح لحياة هذا الزمان، الذي زهد فينا.. ومع ذلك، تطبع أكلي ومشربي وكسوتي؛

خشونة الفقر.. يا شيختي الوصايا لمن يستطيع إنفاذها، إذا انطبق الحال والمقال".

فتضحك:

"يا علي القلب إذا صفا، تجلت عليه سطعات الأنوار الشهودية، حتى يصبح مجالاً للوسع النوراني، فكيف تقول أن الزمان زهد فينا؟!.. والزمان لا يزهد!".

فأبتسم وأشعر أن عروق قلبي تنتفض، وتمضي بعيداً تخترق الطبقات والحجب، لتزرع في اللانهاية.. فتستردني:

"يا له من قلب!"

سألتها عن الحوار الذي أحبت، وتلك الحكايا التي تناقلها الحي عنها، فتنهدت:

"كان ذا وجه صبوح؛ وابتسامة كلما ضاقت اتسع نورها!.. الوحيد الذي لم يكن يخشاني، ويحضر الطعام إليّ تحت شجرة اللالوب، ولا ينهض إلا بعد وقت طويل.. كان فتىً صالحاً مليئاً بالإشراق؛ ولا يعرف ذلك، لكن القوّة التي شدته اليّ، هي ذاتها القوّة التي شدتني إليه. كطرفين يلتقيان ليخلفان وراءهما عذوبة الماء السلسبيل..

تلك كانت أول الحكايات وآخرها، فليس في حياتي حكاية سواها.. حكايتي وعبد الرحمن ود التويم، وكل ما عداها من حكايا؛ محض أكاذيب من نسج خيال نساء الحي.

كنت آنس به ويتآنس بي تلويحاً وتلميحاً، فالصبي –ود التوم– تغلب على مراهقته بصلاحه ونقاء قلبه وذاك هو الإشراق.. لكن أهل حيك ضربوا علينا الحصار، دونما سبب يبرر ذلك. طردني سكان حيك، بعد أن قتلوا غرابي؛ الذي اعتنيت به وجاورته. طردوني بعد أن أحرقوا شجرة" (اللالوب). فافترقنا ولم نلتق بعد ذلك أبداً.

لكنني كنت أعلم أنه سيموت كمداً؛ كما ستموت أنت، وكما سأمضي وإياه إلى شجرة اللالوب في المنتهى، لنقيم في كوخنا تحتها. نلهو مع غرابنا الأشهب الوديع!

تركت الحي دون ضغينة؛ حتى لا أُقتل كاللالوبة والغراب، ولم يتبق لي سوى ذكريات الأيام الخوالي.. يا علي أنبل الذكريات، تلك التي تخلو من الضغينة".

"وما أن لها في حسنها من شريكة"

وقتها كنا في قلب ميدان التحرير قبالة التمثال، ومع آخر كلمات الهاتف بدى ميدان التحرير فارغاً إلا منا، وشاب بهالة ملائكية يتهادى في مشيته من بعيد باتجاهنا، كان قادماً في تؤدة من قبالة الشارع المفضي لتمثال طلعت حرب. رأيت في طيفه عبد الرحمن ود التويم، وأدركت من ارتباكها أنه هو!

نعم. كانت صديقتي الوحيدة الميرم كلتوم مرتبكة ومتنازعة، تقلب بصرها بيني وبينه. ثم حسمت أمرها فمضت باتجاهه، إلى أن اقتربا من بعضيهما، وتخاصرت أصابعهما، ومضيا في شارع القصر العيني..

كنت واقفا أمعن فيهما النظر، إلى أن تلاشيا في الشارع الخالي إلا منهما.. فرددت بصري وأنا أشعر بميدان التحرير يمتلئ فجأة بالناس، والضجيج يملأ شارع القصر العيني، والزحام يعيق المرور في الشارع المفضي إلى تمثال طلعت حرب..

كانت الحياة قد عادت إلى طبيعتها، في اللحظة التي تهشمت فيها طبيعتي، فآخر– ما التقطته عيناي: عربة نقل كبيرة قادمة نحوي بسرعة –ثم لم تلتقط أذني بعد ذلك، سوى صرير عجلاتها وهي تطأني..

القاهرة،2004

أُغنية لطائرِ الحب والمطر

كنت متكئاً على عصاي، عندما غفوت على الكرسي.. انتبهت إثر تحطم العصا؛ بعد أن تحوّل جوفها إلى دقيق ناعم. بفعل السوس والأرضة.. تماسكت في اللحظة الأخيرة؛ متجنباً السقوط عبر ثُقب الليل!

كانت الأرضة اللعينة؛ قد كررّت ذات فعلتها، مع سقف وأثاث البيت. قلت في نفسي يجب أن أجد حلاً! وإلا تحوّل البيت كله إلى رماد. أتت (إيمى) تحمل (قُمرية)، مدتها لي:

"أحد الأطفال الأشقياء حطم جناحها"

أمسكتها برفق ووددت لو بقيت إيمي.. كبرت كثيراً، واكتملت استدارتها. صارت (ملظلظة).. تذكرت طفولتها الشقيّة. والتصاقها الدائم بي. كانت دائماً تتسبب في الكوارث، التي تُنسب إليَّ في خاتمة

المطاف. فأنال بسببها "العلقات" الساخنة، دون أن أقول الحقيقة وأشي بها!

وددت لو أقول لها شيئاً الآن، فلم أستطع.. أشعر أحياناً أن خالتي تعلم خفايا عقلي وقلبي، تجاه ابنتها.. حاولت أن أنسى. فتشاغلت بالقُمرية الصغيرة.. حدثت نفسي: "حديثة عهد بالطيران على ما يبدو"

تابعتها بنظراتي وهي تتخلل بجناحيها طبقات الفضاء اللامتناهي: تتضاءل، تتضاءل، تتضاءل، ثم تغيب في الأفق الشفقي الورّيف..

شربت الشاي من يدي إيمى، ورحلت في عينيها إلى آخر المساء.. كانت الشمس مجرد هالة خابية؛ خلف السحب الغائمة.. تشتت بين عينّي إيمي وإيغال المساء!

وقع خُطى الليل الثقيل، يبعث في النفس نوع غامض من الرّهبة والتحفز.. عوالم من البوح والتردد تتداخل، تتلوى في داخلي شيئاً من أشواق ومشاعر لم تفصح عن نفسها بوضوح.

كان الوقت متأخراً. طلبت مني خالتي اصطحاب إيمي للتسوق. أحسست بنفسي سعيداً كطفل غرير، يُوهب حلوّى أو لُعبة يحبها.

طلبت مني إيمي أن نسير على أقدامنا. بحثت في جيوبي عن حلوى لأهديها لها.. عثرت على بقية أحلام طفولية ولم اعثر على حلوى!

ونحن بمنتصف الطريق، أحسست بها تود قول شيء بعد نفاد صبر طويل، وأحست بي كذلك، أود قول أشياء لفها صمت سحيق مذ كنا صغاراً..

تمدد الطريق على المسافة الإلتوائية النادرة إلا هنا.. استوعبته بنظرة خاطفة، واشتعل إحساسي في صحن عيني إيمان.. اللتين، كنت أغوص فيهما عميقاً، عميقاً.. كانت السماء مورقة، وعيناها تبشران بسحبٍ ملبدة بالغيوم!

سماء عيني إيمان تعكسان ما رافقتنا من أحاسيس عميقة منذ كنا صغاراً. تلك الأحاسيس السرّية، الصاخبة عميقة الغور!

أتتني العيد المنصرم توفي بالوعد الذي قطعته عليَّ مذ عالجت جناحها المكسور.. كانت بعد صغيرّة لا تعتقد بالتئام الجُرح. وانسداد الشرخ الشرشفي في قبة السماء، التي غيبتها أخر مرّة.. كنت قد أنفقت زمناً في معالجتها ثم أطلقتها للريح، ومنذها أصبحت تنفق أياماً من كل عيد معي!

تهبط على النافذة حين تجد غرفتي ممتلئة بمن أحب وأكره.. وحين تخلو الغرفة إلا مني وعلاقتي المتجددة بها. تهبط على مخدتي أو عند حافة السرير.. أُقبل جناحيها.. أُذيب لها السكر في الماء.. أنثر لها الحب.. نثرثر معاً.. أضحك، ثم ترحل لتأت في عيد آخر.. سبعة سنوات ولم تتغيب أبداً، لا أدرى ما الذي أخرها عن المجيء هذا العيد؟!

الطريق الملتوي كثعبان يشعل في النفس أحاسيساً متداخلة.. أطلقت عربتان السباب بينهما، وانحرفتا على نحو مفاجئ ووقعت مقدمة أحداهما على حفرة.. كنت أحيط خصر إيمان بإحدى يدي وجذبتها بالأخرى تحسباً لأي خطر. حين انقشع الخوف عن الطريق الالتوائي، لم انتبه إلا وهي على صدري.. استعدت حواسي المغمدّة في الدفء.. مذ كنا نرتدي السراويل بعد؛ وبيننا علاقة مبهمة. يفهمها الجميع ولا يجرؤون على تسميتها!

أتذكر كيف كنا نتركهم يتحدثون بتكرارٍ ممل؛ عن أحداث القرية: القادمين والذاهبين. الذين توفوا مؤخراً. الذين أُغتيل أحدهم برصاصة طائشة. والذين بعد لم تدلقهم مدن البتر ودولار على دروبنا المنهكة.. المغتربين لأجل أنثى تضمد جراحات غربتهم. وتلملم شظاياهم؛ لتصوغ منها أُنشودة طويلة، لا تحكي كالمعتاد أحزان المغترب!

نعم أذكر كيف كنا نهرب لنلهو بعيداً في عوالمنا البهية، المحتقنة بمشاعر الحب المكبوت!

سكبت على مؤخرة العربة المتهالكة على الحفرّة ذكرياتي الطفولية. وأنا انسحب من المكوث بين شسوع عيني ايمي.. احتوانا الشارع كأشياء صغيرة، اعتادت إهانته كل يوم بأحذيتها.. كان الشارع قد أخذ يخلو شيئاً فشيئاً، إلا من بعض السابلة المتفرقين، على مسافاتٍ متباعدة هنا وهناك..

مسحت السماء ببصري. كانت قد شنت على مدينتنا في الآونة الأخيرّة، حملات لا هوادة فيها، قلت لإيمي:

"نذر كارثة أخرى. بيوت المدينة المتهالكة لم تعد تُحتمل؟!"

نظرت إليَّ وابتسمت:

"أين كنت بالأمس. انتظرتك طويلا؟!"

"كنت هائماً أغزل في القلب مخلاةً لحبٍ جميل"

تضرج وجهها بحُمرّة لامست سواد الليل في الكبد.. وسادت فترّة من الصّمت الحميم.

آه لو تدرين إيمي كم اشتاق ضحكتك؛ المطلة على عوالم تدفن نفسها بالصّمت. أسرى العشق واتسع جلبابه وفاض، وتمددت في شوق وحنين..

بدأت خيوط المطر ترفو أثواب الهواء الطليق. ثم تدلت تتكوم على الأرض.. لم تعد رزازاً بل وابلاً لاسع الوخز..

ثرثرت في أذني العيد الماضي وقلت لها:

"مدينتنا تكره الغرباء"

عبست، فأضفت:

"أنت لست غريبة"

فغردت وانطلقت من غنائها تنبؤات الزّمن الآت. كانت تود أن تفعل شيئا لأجلي. هكذا أحس بها كل عيد، وكنت مسكوناً بإيمي. لا أدري لماذا تأخرت هذا العيد؟!

على حين غرّة اشتد المطر.. أرسل مواويله المرعبة.. سحبت إيمى إلى مظلة على حافة الطريق.. كان الشارع قد خلا تماماً من المارّة، والليل

يُنذر بالتوغل في خفاياه.. أخذ المطر يعبث بوجه إيمان، فتطاولت بقامتي لأحميها. تجرأ على ظهرها فخلعت سترتي. وأمرتها:

"خذي ارتدي هذه لئلا تصابين بالبرد"

"لكنك..."

أصررت، فتعنتت. فكشرت لها عن أنيابي. استسلمت وهي تضحك في غبطة.. "تبقى على حماية الجبهة الأمامية".. تطاولت أكثر لأحمي وجهها. لم أشعر بوقع حبات المطر على ظهري، كانت عيناها تتماوجان بإحساسٍ دافق. تهيجت مكنوناتي كلها، وتراكمت في داخلي شعلة من الأحاسيس والمشاعر الفياضة. رعدة قوية اهتزّت لها المظلة، جعلت إيمان تندفع عميقاً عميقاً لتختبئ في صدري!.. تنبهت إلى شيء يحط على كتفي. أزحت وجهي عن تنفس إيمان المنتظم.. أفلتت إيمان بذُعر..

كانت القُمرية تفرد جناحيها على كتفي. مددت لها يدي فهبطت على راحتها. مددتها لإيمان.. كان الفرح يطل من عيني القُمرية.. طارت من كف إيمان لتحط على كتفي.. غلفنا الصمت للحظة.. كان المطر قد توقف منذ وقت ليس قصيراً.. حنت إيمان رأسها في حياء. غردت القُمرية كما لم تغرد من قبل. ثم طارت..

تابعتها بنظراتي وهي تتسلل بجناحيها الفضاء اللامتناهي.. وتتضاءل أكثر فأكثر.. حتى غابت تماماً واحتوانا الطريق...

كوستي، 1997

النَّوة

"لم أعد أقوى على التحمل أكثر من ذلك!"

"إذن ستهاجر؟"

"أنا بصدد ترتيب ذلك"

"وعائشة؟!"

"....."

منذ أجبت على أسئلة صديقك الوحيد إبراهيم، والحصار يشتد. ومع الحصار تُعبر الملامح عن نفسها. تكشف عن أشلاء عائشة، التي مزق طيفها الحصار!...

اتخذ محمود مقعده جوارك في البص الهرم. ولم يلبث أن نهض لامرأة مسنة. اقترب بنظراته –المتسللة لزحام البص المكتظ– من مفاتن فتاة لم

تجد مكاناً للجلوس. ودنا يلاحقها بين الزحام والعرق، إلى أن اقترب كثيراً، فيما كانت هي قد نهضت.

ذكريات صداقتكما المنهارَّة، نهضت من بين الأطلال. مشاعرك المائية تجاهه. في السكة التي جمعتكما الآن. كصدفة، رُبما غير مرغوب فيها.. نتف من اللحظات البعيدة الهائمة، محطة أخرى وينتهي الأمر!

كنت تظن أنك ستدمر العالم، وتشيده على نحو مختلف، وها أنت تستعد للنفي الاختياري والرّحيل. تمضي كنبي طريد، تترك خلفك المزاعم والهواجس والظنون. وكثائر مهزوم تمر عبر ثقوب التاريخ، تصطحب الدراويش بلباسهم المرقع، وتتسلل مسارب الآيدولوجيا. في قاع المدينة. تقودهم إلى ميدان جامع الخرطوم الكبير وتلتفت خلفك:

"لا أحد"

تعزّى نفسك بأشلاء طيوف تتلاشى في الذاكرة، يحتويها الوجدان قبض ريح! تخاله شيئاً من الحنين إلى الحنين، أو لوعة مختلسة فتوغل في الرّحيل!

وكبرق يضيء فجأة وينطفئ. تمضي عائشة، تخلف وراءها أشتات من الرماد، وبوح يتلف الدواخل!

كانت عائشة الورد والسنابل والمطر الأليف. دون رعد أو صواعق.. تواصل لميلاد أشياء يلفها الصمت ويحويها الأمل، وبعث لنهايات جديدة!

شهد على لقائنا الأول عصفور الجنة الملون، في الفناء الخلفي. فامتلأت دواخلنا بالأغنيات.. بحنا للجهنمية الحمراء.. فداعبت وجهينا بغصنها الفارع!

"سأُنجبك أطفالاً بعدد هذه الأورّاق"

تقول، فتضحك عائشة بخفرٍ ودلال:

"سأسمي البكر محمود.. صديق أخي.. صديقي"

"لا، سأسميه إبراهيم على صديقي أنا"

وتقرصك في عضلك فتعضها في حلمة الأذن.. وتنثر الجهنمية الحمراء الطل. تتساقط أوراقها. وبقايا من شذا سرّى، يضوع في العروق

والأوردة.. يتهشم قصب عُش القُمرية؛ في قلب الجهنمية. وتداعب أغصانها وجهيكما.. شذا لا مبال تختلسانه في غبطة حميمة!

بُحنا للغفير العجوز بسرنا الذي ولد فجأة. يعلن عن أرقٍ بواح. للأفاريز، النجوم. الشجر. والحبيب الحبيب. انسحب الغفير إلى كوخه أقصى سور الفناء. تاركاً خلفه ابتسامة واسعة. لقلب توحد في ماض بعيد. أحاطنا به. تقلص القلب وهو يبصم على فضاء البوح!

تقلص أكثر فأكثر يوحدنا في رحمه.. تمتص غرفه الدم المندفع أكثر فأكثر.. يرتخي القلب شيئاً فشيئاً!

لكن كان الطريق إتجاه واحد. حلزونين تؤام، قذفهما الموج. يكابدان حر صيف لاهث. طاردتنا الشائعات.. تناثرت الأقاويل. اشتد حر الصيف على آكام فناء مهجور، يفضي إلى شاطئ منحسر، تهورّت عائشة.. غاصت في اللجة.. انحسرت دون أن تمسك بالنداء!

كان العوازل يقودهم محمود قد لغموا كل مكان. نظر غفير الفناء بوجهي في حزن وأسى. رمقني الجيران في الحي بارتياب وقلق. ورفض جارنا الملتحي أن يدس يده معي في الطعام.. كنت مثخناً بالجراح كنبي

طريد، يتوهم غربته في نوّة. تجذبه إلى مركزها. فيهيم في اختناق آخر المعجزات!

ما أن جلست على مقعد الباص. حتى جلس محمود جواري. كنا كشخصين لم يحدث لهما أن عرفا بعضيهما أبداً. وددت لو أسأله لماذا فعل بنا ما فعل.. فداهمني بالسؤال:

"سمعت انك تركت العمل؟"

"وعلى سفرٍ"

"لماذا؟!"

"لأنه الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله حتى لو تآمر الآخرين لمنعي!"

كان البص يسير ببطء. والزّمن بداخلي يتسحب، والذكريات تمضي بخطى وئيدة. وعائشة كتظاهرة عرمرم يملأ هتافها رأسي.. قلت لإبراهيم:

"أعادت عائشة خطاباتي. وأعطيتها الفراشة المخنطة التي أهدتها لي، عندما التقينا أول مرّة"

"بهذه البساطة؟"

"....."

"وصديقكما محمود؟.. صديق العلاقة"

"قفز على العلاقة!"

"لقد حذرتك منه لكنك لم تنتصح"

"أعط للنفس البشرية عذراً"

"إنها جريمة!"

"سيتزوجان عما قريب"

"وأنت تسافر وحدك؟"

"لا أدري!"

رمقني محمود بخبث. تأرجح بشدّة مع اهتزاز البص في أحد المطبات. اقترب من الفاتنة أكثر فأكثر... قلت لعائشة:

"كيف تتخذين مثل هذا القرار وحدك؟"

"....."

"أين إرادتك.. وإيمانك بي"

"لقد انتهى كل شيء!"

كضربةِ رُمح. موصل إلى تيار كهربائي باغتتني عبارتها. فلم أصدق:

"ماذا؟!"

ومضت مثل لمحة خاطفة مخلفةً ورائها، أشتات من الرّماد والدخان والحريق.. تركتني للحزن والأسى.. عائشة صارّت كشوكة ناتئة بداخلي، تخذني بقسوّة، كلما استعدت شيئاً من الذكريات!

جذبتني النوة إلى قلبها. تفتت. تجزأت. صرت جزءً من غربة الريح!
تنهد البص فأخذت ملامح محمود ترتخي. وتتهدل، وأكثر فأكثر يدنو بجسمه من الفاتنة التي أخذت تتململ في وقفتها... و... شقت صرخة حادة، خرجت من بين الترائب المثقلة فضاء المكان. وشعرت بجسمي يطوح في الهواء!
تعالى لغط وهرج ومرج، ولم أعد أفهم شيئاً، فيما كان محمود يقف كالفرخ المبلل بالوحل.. يبحث عن الفاتنة بعينيه الزائغتين!

الخرطوم، 2002

حب

كبرقٍ يشِّع فجأة؛ أطلت هديل من غياهب غيب غامض.. حبلى بقلق العرافات وتوترات المغنين العابرين؛ ببوح القماري ومواجد النوارس المهاجرة، في مساءات مبهمة للُقيا مؤجلة.. كإيقاعٍ حزين في حناجر الشعراء الجوالة.

أطلت هديل.. بدايةً للأشياء ومنتهاها، وسر حميم يضيف إلى الوجود؛ فصلاً آخر في قصة الخلق؛ التي لم تبتدئ. قالت، فقلت.. تنهدت، فتنهدت وحين طال الصمت، وتمدد الانتظار على الشرايين المنهكة، انتحى كلانا طي الهاتف المتقطع الصفير في الفضاء البعيد:

"البطاقة انتهت!"

ونمنا، يحلم كلانا بمدى البُعد؛ وسر المسافة ومنتهى الشوق، والاقتراب أقصى تفاصيل الوريد..

أول مرّة التقينا. تبادلنا حديثاً متحفظاً، عن ماضٍ لم يثمر، ولكنه ظل مؤرقاً؛ ككل الذكريات الأشد جمالاً وألماً. وذات أسى دفء التقينا لينشطر كلانا، وهو يحمل في غربته شيئاً من ملامح غامضة! وربما أحاسيساً نائية. أقصى تلافيف القلب.. أدنى الزحام العام!

هكذا افترقنا، ليمضي كلانا في الاتجاه المعاكس، إيغالاً في اغتراب يطول، وهجرّة مفعمة باللوعات والأسى.. مثقلين بالتباريح وباليومي وأُخوّة الدّم والتراب، وانتظار الآخرين ووجه الأم الصبوح.

منذ طفولتها تبدت هديل كأُنشودة غجرية، مترعة بالحنين والأسى واللوعة. ففي حصارات اليومي تشبعت بهذا التمرد، المنطوي على ريح عاصفة.. هبّت تجتث الحكايات السائدة.. مشرعة أشرعتها، كآخر السفن المغامرة، في أرخبيل غامض ينطوي على الحكايات القديمّة، وحطام البيارق وذاكرة الفراغ!

مضت (هكذا).. تحلم ببابسة في مكان بعيد قريب، تقيم عليه مملكتها ضد الحصار.. رفرف قلبها لعابر لفحت وجدانه نارها.. فلفح قلبها بلظاها ومضى، ككل العابرين في الأمكنة العابرة، قبل أن تبدأ المعركة، ويلتهم الفيضان كل شيء، فلا تبقى من سفن آخر الناجين، سوى بقايا الأشرعة والصواري المحطمة!

وجه هديل الآسيان، المترع باللوعة والنوستالجيا العذاب، انطوى على عاصفة تجتث الحكايات القديمّة. مشرعاً اعاصيرها الكونية، لأحاديث لا تبقي ولا تذر!

حين بدأت حكاية الغريب البعيد كمبتدأ وخبر، في النهايات الفاصلة بين الحب والتردد. المكر والمناورّة. الحكمة والاندفاع.. كانت الشمس قد توسطت السماء، وانقشعت الغيوم وامتلأت شوارع القاهرة بالحب!

ومن ناصية الشارع الذي يتوسط المدينة هاتفها الغريب، فردت.. ولم يتكرر الصدى.. ومضى الوقت أثقل ما تكون الخُطى.. أستودع الغريب الريح كلماته النادرة. لتهب عليه وتمضي دون أن يكون الغريب غريب، ودون أن يعود الغريب قريب!

قلق الغريب قلق هديل. ووجع الغريب وجع هديل.. وبين الاحتمالين احتمال أن يلون الرمادي حواشي الأفكار وهوامش الأحاسيس، ونافلة القول: المحبة.. زاد سيدي كوكاب العنقرة قوت الزمان!

أجاب الغريب فردت هديل، وأكد مفتاح الكمبيوتر أخر الأوامر المرسلة، إلى مكان خارج إحداثيات الجغرافيا والزمن.. إلى هديل تجيء بالبشارات السعيدة!

إذن كان الغريب مزيجاً من متناقضات هديل، يمضي مرتحلاً عبر السباسب والوهاد، لتسقط النسوّة الغريبات والعابرات، ويتلاشين في الفضاء الرّحيب، لذاكرة المكان المتغير في الزّمان المتغير، الذي لا يجود بثباتٍ يتيم!

مضى الغريب خارج الوجع المقيم، لآخر النسوّة المغادرات.. قسوّة الغريب هي سحر هديل، جبروتها في النفي والإقصاء، لإشادة مملكة من هديل اليمام ولبن الطير وألوان قوس قزح وبوح (الغريب) هديل اليمام، طلسماً مرصوداً في الديانات القديمّة، التي جاءت لتجمع العشق والعشاق، ليشكلا كلاً واحداً في مركز الصفر!

إذن كانت هديل الغريب ذاته.. فكرة في خاطره.. خاطرها، رُبما.. بوحاً لأزلِ العبارّة، يشيدها الحرف في أسراره، مختطاً طريقاً غامضاً!

نشأ الغريب في وحدة هديل.. نهض في عذاباتها، فمضى.. تركها تخترق أحلامه، تتوغل خاطره وتشيد عالماً من الفسيفساء والأطفال، وأنشودات الرُّعاة وأغان الغجر!

كان الغريب روح هديل ذاتها. وهي جسده الذي افتقده. حين مضت لتشيد مملكتها ضد الحصار. فحُوصرت في العابر المزمن.. وانشطار

الذّات. نهض الغريب جوهراً لهذا العابر.. أزلياً في هذا المزمن. وكطاقةِ التحام جبارّة اقتربت الذّات من ذاتها. لتلتئم انشطارات الغريب هديل!

أدرك أنها وجهه الآخر وأدركت أنه... وأدركا أن لا محالة. ما كائن سيكون! نسيا رفقة الماضي المؤلمة.. وحزن الليال الطوال.. عذابات الغناء الهزيمة وانكسار الوقت في غربة الذات. وتشظيه إلى وحدات ملأى بالحرمان والذكريات البائسة!

هاتفته هديل وقالت فقال. وقال فلم تقل. كان الحلم يسوقهما إلى مملكتهما البعيدة.. يستمدان من تمردهما المتلاشي، وقوداً لمآلات رحلة؛ حبلى بالوعد والمواعيد والارتقاء!

القاهرة، 2003

التقرير الأخير حول محنة أبو لكيلك الجنكويزي

حيّاة آدمو لغير المقربين منه؛ تبدو غريبة وغامضة في آن!.. تنهض في قدرته على تسريب تلك المشاعر المتناقضة للآخرين: التوبة، القدر، الثورة التراجيديا، القلق، الشغف والموت.

وكلما اقتربت منه أكثر، اكتشفت أن هذه المشاعر المتناقضة؛ هي إختصار لمعنى الحب والقضية (الوطن) عنده!

لطالما حاول آدمو السيطرة على أبو لكيلك "الجنكويزي" مدفوعاً بهذه المشاعر المتناقضة. ولم يجن سوى المقاومة، التي كادت أن تودي بحياته، لأكثر من مرّة. لولا تراجعه عن الاستمرار، في محاولة التأثير على أبو لكيلك!

كان آدمو رجلاً. استثنائياً، لا تنقصه الشجاعة ويُدرك أن أصعب شيء لمن كان مثله، الابتعاد عن الشر! وظل أبو لكيلك هو التجسيد الحي لما يطلق عليه آدمو (شراً!)

حبيبته حليمة "الورتابة" تكرر مراراً بخفوت: "نظراتك تخيفني، تثقبني. من أين جئت بهذه العيون؟!" وكعادته عند تلقف يدها، لا يعلم ما هو أفضل شيء يمكن أن يقوله لها (الآن)!

لا يزال آدمو رُغم مرور سنوات طويلة، يذكر في قيلولاته المتكاسلة، كل ما مرّ بحياته من مرارات وأسى والتياع. كأن كل شيء حدث البارحة فقط! وبين كل ذكرى وذكرى، يتوقف ليحاسب نفسه "لو كنت صمت و اغلقت فمي؛ لما جرى الذي جرى!" يتأوه آدمو في وحدته، متكئاً على بقايا من ذكريات؛ تشظت في هجير السنوات العجاف!

كثيراً ما يرى الحيرّة تأكل عيني حليمة الواسعتين.. حيرتها منذ أول لقاء لهما؛ في سني حياتهما الباكرة. حين اخترقا عالميهما الحميمين، غائبين في غلالة برزخية؛ تقاطع فيها الألم مع قسوة الشوق ونيرانه، معلنان مواجدهما الوليدة، للوادي وأشجار القمبيل و القنا وصندل الردوم، و...

منذها بقدر ما اقتربا من بعضهما؛ ازدادت المسافة بينهما اتساعاً.. فقد أدرك آدمو أن حليمة لا تنتمي إلى عالمه.. ذلك الحس الأُسطوري، الذي يهيمن عليه، ويتغلغل في روحه وجسده!.. ولكن ظل مخلصاً لها.. وظلت وفيةً له.. كانت سعيدة بسيطرته عليها، وكان يفهم دخيلتها.

ظل آدمو لسنوات طويلة، يشعر بالحاجة للحب، في كل ما هو حوله، لا يحتمل كلس الحياة. يعاني آلامه وحده، دون أن تصدر عنه آهة واحدة!

منذ ميلاده، ولدى دخوله "الخلوى" أخذ يفكر في كون اللغّة.. اللغّة التي يحفظ بها سور الكتاب المقدس، ولغّة قبيلته المختلفة عنها.. وفي هذين الكونين أخذ يتحرك لإستكناه هذا السر، الذي يبدأ من هنا وهناك بين تلافيف الآيات، ومتون الأحاديث. وحواشي سيرّة النبي العربي!

كان سؤالاً جارحاً يتغلغل داخله، لينفتق عن ضباب يفضي إلى ضبابٍ آخر!.. قدر خفي ذلك الذي قاد آدمو إلى المدرسة الابتدائية، دوناً عن أقرانه في القرية الصغيرة، الرابضة على ضفة الوادي. حذاء دغل القمبيل!

وبين مرحلة وأخرى، كانت هويته تتمزق لتلتئم وتلتئم لتتمزق. هويته التي صاغها أبواه. وأهل قريته بأسحارهم وطقوسهم، وطبيعة الوادي الناهض أسفل الجبل الشلال مارتجلو!

كانت لغته الأم تبتعد لتحل العربية، التي التهمها ذكاءه الحاد متسللاً أسرارها وأطماعها، وهيمنتها على لغته الأم.

تعرف آدمو على التاريخ الإنساني، وهو يودع آخر مراحله الدراسية.. أدرك صراع الإنسان في محاولاته الدائمة للسيطرة على قوى الطبيعة.. ولم يستطع تفادي رؤية تاريخ قريته، يتحول إلى أشلاء! بين معان تاريخ أوروبا والعالم وبلاده الكبيرة، التي يشقها النيل كفلقتي نواة، نصفها متغضن كالعرجون القديم!

المعارف المتناقضة والمتصادمة، فتحت وعي آدمو على أسئلته الحارقة.. وتناوشته هذه الأسئلة لتفتح كيانه على مصراعيه، وتدفعه إلى عزلة عميقة! لم يخرج منها إلا وهو حاملاً السلاح، ضد أبو لكيلك الجنكويزي!

قبل سنوات طويلة من اتخاذ (آدمو) لقرار الثورّة المسلحة، داهمت حليمة غربته ووحدته القاسية.. على شفة الوادي. جلست دون أن تستأذنه.. التفت إليها ووجهها يلتف بوجهه.. كان صفير الريح يتخلّل الوادي الوداع، فغابت في مسام الريح.. تبعها آدمو، مكتفياً بأن يجذبها إلى مركز الريح، يغرقها في أنينها ولوعتها؛ وهي تحتك بقش القطاطي وصريف الحيشان المزروبة بعيدان الدخن والنَّال!

كان آدمو يدرك أن حليمة تعلقت به منذ الصغر، لأنه المحسوس أمامها. تنظر لقصتهما معاً، كقصة حب حالمة، وهما يتسللان خلسة من خلوّة الفكي جبرين شطة، إلى الدّغل في ضفة الوادي أو الغابة، حيث صندل الردوم والدروت أعلى قوز السمسم.. كان هدوء حليمة، يضفي على جنوحه طابع المغامرة التي يحب، وبشعائرهما المقدسة عند لقاءاتهما؛ تنفتح بوابات السحر، ونوافذ الشجن الرّيفي، كأُنشودات أثرية لم تُكتشف!

غموض آدمو هو ما يدفع بقلق حليمة إلى أقصى الحدود: عندما يغيب دون رسائل. عندما يعود دون ترقب.. فتتمنى ألا يسافر مرّةً أُخرى أبداً –هكذا ظلت حليمة تعاني توجداتها، منذ سنوات دراسته الأولى في

المدينة، حتى لحظة دخوله في تلك العزلة البديعة، التي خرج منها ثائراً يحمل السلاح، معلناً تمرده على أبو لكيلك الجنكويزي!

كثيراً ما كان حرص حليمة؛ على لفت أنظار الآخرين يقلقه، ويفجر داخله كل كوامن التوتر الأزلي، لروحه الملتفة في دمور أبيض، يحاصره في أحلامه النادرة!

جمال حليمة. جاذبيتها وسحرها، الذي يشبه تلك الاحساسات المتسرّبة، من بوح آلهة المعابد الغابرة.. كل شيء يخص حليمة يدفعه إليها دفعاً، وتتسع المسافة بينهما أيضاً في الآن نفسه؟!

بعد محاورات عديدة ووعد ومواعيد فاشلة، في إطار من السرّية المتسربلة بسلسلة معقدة من الاتصالات والوسطاء. بعد كل هذه المحاولات نجح آدمو في لقاء مندوب (اليانكي)..

تحدث آدمو عن آلام شعبه، وأمجاد أسلافه وجهودهم الدبلوماسية، قبل هيمنة (الجنكويز) علي البلاد الكبيرة.. تحدث عن البُعد الإنساني لقضيته وواجب الأسرة الدولية.

وكان مندوب (اليانكي) يبتسم في خبث ودهاء والكلمات الأخيرة لرئيسه لا تزال ترن في فضاء أذنه!

في تلك الظهيرة القائظة، التي التقي فيها آدمو اليانكي، كان مشحوناً بانفعالات الأرض حليمة، ومشاهد الرفاق؛ الذين سقطوا في غارات الجنكويز، على رّمل القرى والحلالات. جاءت صورّة أمه العجوز (خاطرة)، وهي تحترق داخل قطيتها المحاصرّة بالجنكويز. جاءت صورة أبيه "لأول مرّة يراه يبكي".. كان مقطب الجبين. يتكلم بصمت، وفي عينيه تمتزج مشاعر شتى!

أدرك آدمو أن الجنكويزي أبو لكيلك، اختطف حليمة للضغط عليه.. التاع. هاجت دواخله!

كانت ذكريات الذين لطالما أحبهم بعمق، وترسخ وفائه لهم في وجدانه، تداهمه كألف عقرب تتصارع في زجاجة مغلقة؟!

انفض اجتماع آدمو باليانكي، فتوجه إلى اتباعه وحواريه. ضغط على مشاعره الذاتية. تغلب على ألمه والتياعه. خطب فيهم عن حالهم ومآلهم، حتى سالت من عيونهم دموع الدّم، تبلل أرض المعسكر المخفي بعناية في قلب الجبال. ومضى آدمو ينظم صفوفه معلناً حربه الضارية، على الجنكويز وجيش أبو لكيلك الجنكويزي!

ومع اشتداد المعارك والهزائم المتوالية لجيش أبو لكيلك، انتشر الفزع في أوساط العالمين ببواطن الأمور، من صفوّة (سنار الجديدة). بينما كانت العامة تمضي بإيقاعها ذاته، لا تعرف شيئاً عما يجري في حدود دار الريح البعيدة، فأجهزة إعلام أبو لكيلك، عتمّت على غارات الجنكويز وهزائم جيش أبو لكيلك. وأكثرت من بث تلك الأغنيات، التي لا طعم لها، دون أن تُشير بين فواصلها للقتل الجماعي والاغتصاب وحرق القرى، حيث غارات الجنكويز لم تبق ولم تذر!

كان الجميع يتساءلون: كيف لآدمو الذي طالما شدا بثوابت أبو لكيلك العجيبة، وتغنى بأمجاده؛ كآخر خلفاء النبي العراف ذو البدلة البيجية، عالم القانون واللغات وفتاوي النكاح الشرعي وحيض النساء النفساوات.. كيف لآدمو هذا أن يشق عصا الطاعة على سيده المهيب الركن، ويعلن الثورّة على قداسته بكل هذا الجنون؟!

وبالطبع سقط هذا السؤال تحت قصف الانتينوف و الهليكوبترات والمدفعية الثقيلة، على الفلاحين والبسطاء. الذين كانوا ينظرون لآدمو "المنقذ، المخلص، الذي سيملأ أرضهم عدلاً، بعد أن مُلئت جوراً" بعيون ملؤها الأسى والالتياع!

قال عباس ود الخزين:

"لا بدّ من القضاء على قطاع الطرق، وزعيمهم آدمو المارق المرتد"

كان ود الخزين لحظتها؛ يؤكد على صدق النزوع النفسي لأبي لكيلك؛ في شهوّة القتل وعشق الدّم والاستباحة.. ففي اليوم الذي سبق اليوم الذي استولى فيه أبولكيلك على السلطة في سنار الجديدة. كان قد افتتح انقلابه على الأمراء العنج، بقتل عشرة من الفلاحين، وثلاث غنمايات وحمارين. فقط؛ ليتأكد من كفاءة بندقيته! فشد كبير العرافين على كتفه بود، مستحسنا فعلته!

من دون كل المقربين منه، كانت علاقة أبو لكيلك بآدمو مميزّة، على الرُّغم من احساسه الدائم، بأن التفاهم مع آدمو، من الأمور التي تصعب عليه، إلا أنه وجد نفسه منجذباً إليه على الدوام.. ربما لأن آدمو لم يكن يكترث للتفسيرات العقلانية لسلوك أبو لكيلك. هذه التفسيرات التي لو طرحها لوجد أبو لكيلك حرجاً شديداً، في تبرير وجوده واستمراريته!

أشدَّ ما كان يزعج أبو لكيلك، هو خوفه الدائم من شيء غامض؛ لا يدري كُنهه بالضبط!.. هذا الخوف الذي يطارده منذ الطفولة الباكرة، جعله لا يستطيع احتمال العلاقات المستقرّة بالآخرين، ووقف خلف

تعذيبه في الصغر للزواحف والعصافير، والتسلي –عندما بلغ مرحلة الشباب– بقتل الكلاب والفئران والقطط!

سبب أبو لكيلك بسلوكه العدواني، مع أقرانه لأسرته توتراً وقلقاً عظيمين ؛و إزعاجاً لا حد له!

كان أبو لكيلك على الرُّغم من الخوف العظيم؛ الذي يسكنه، يشعر بأنه عظيم ونبيل؛ ولا أحد يدري كيف تكوَّن في دخيلته، مثل هذا الشعور الزائف!

ظلّت علاقة أبو لكيلك بكل من حوله عاصفة، لا تفتأ بين كل آن وآخر، تقتلع أمامها كل ما هو جميل، يربط بينه والآخرين!

أخضع أبو لكيلك كل من حوله –الوحيد الذي لم يتمكن من اخضاعه هو آدمو– وكثيراً ما كان يشعر أن علاقته بآدمو أشبه باختبار القوّة!

كان الهتاف باسم أبو لكيلك؛ والتصفيق له من أحب الأغنيات التي يشتهي سماعها في كل لحظة..

لا يذكر أبو لكيلك في حياته العامرة بالمعارك، أنه أحب فتاةً قط. كل الفتيات اللاتي ربطته بهن علاقة عابرة، اسقطهن من حياته بمجرد انتهاء رغبته في الاستمرار.

جميعهن كن جميلات، خاضعات. يتباهى بهن أمام أصدقائه بفخر وإعزاز فحولي متوقع.. ولطالما حلم بنوع من الحب الأُسطوري، كذاك الذي في ألف ليلة وليلة. ولا زال ينتظر مثل هذا الحب الكبير؛ وقد شارف على نهايته الحتمية!

العلاقة بين أبو لكيلك وكبير العرافين، ظلت غامضة، حتى لحظة دخول اليانكي، في مؤخرة طلائع مليشيات آدمو. فكبير العرافين شخص من ذلك النوع؛ الذي تنسج حوله الحكايات التي يصعب تصديقها، فإلى جانب أنه كائن فُطرت أفكارّه المقدسة على التكاثر الجنسي "كما يطيب لود الخزين التعبير" كان أيضاً مولعاً بالابتسامات الصفراء، التي يمنحها لاتباعه وحواريه بسخاء!

كبير العرافين ظل طوال عمره، في حالة حب دائم؛ كعاشقٍ ولهان ومغرم بفتيات سنار الجديدة. وما يشعنه من عالم بهيج.. عاشق لتلك الترانيم التي يسمعها في الليل فتملؤه حبوراً، وتجعله يسير آلاف الفراسخ، في طريق لم يمض فيه أحد من قبل. يتبع تلك الهواتف المضيئة –كما يزعم– التي تقوده من ظلمات إلى إضاءة خافتة، فشعور بالخدر اللذيذ.. حيث يشعر بالتحرر الكامل. كان يدرك أنه حصل على الحرية، بعد أن دفع ثمنها من عزلته عشرات السنوات!

قالت التاية زوجة أبو لكيلك لجارتها محاسن زوجة وزير الدفاع خلف الله الجنكويزي:

"أبو لكيلك مسكين وغلبان، ما قادر يتفكك من سيطرة الزول دة عليهو.. يقولو شمال يمشي شمال يقولو يمين يمشي يمين؟"

سألت محاسن بتردد:

"دحين يعني ما عندو شخصية؟!"

فرمقتها التاية بنظرة غاضبة، جعلتها تتراجع وتضيف:

"برى يا اختى راجلك منو الزيو.. هيبة وسلطان!"

وعندما ابتسمت التاية، هدأت اضطرابات محاسن وانفعالاتها؛ التي كادت تشرخ الجدار. ووجدتها فرصة مناسبة لتسر للتاية:

"كل ما يشاع عن انقسام العرافين، و مناوأة أحد القسمين أبو لكيلك، محض اختراع لذر الرّماد في العيون! فكل ما حدث ويحدث؛ هو من بنات أفكار كبير العرافين؛ لغرض لا يعلمه إلا هو بسرّه الباتع؛ وأبو لكيلك شخصياً!"

فابتسمت التاية في رضا، وهمست محاسن في سرها:

"سجم خشم اموا!"

وقتها كانت سنار، قد أفاقت من بوح غفوتها الغامضة، على تأوهات أبو لكيلك الجنكويزي؛ التي اهتز لها القصر المتآكل. وفي الوقت نفسه كان آدمو لا يزال يستعيد في خاطره، ذكريات الصبا والطفولة.

أفاق أبو لكيلك من الكابوس، الذي رأى فيه نفسه مخنوقاً؛ ينظر إلى رأسه وهو يتدلى من السقف. تحيط به أنشوطة؛ طرفها ثابت في الأعلى. فتأوه تلك الآهات العميقة، التي سمعها كل من في القصر من حاشية وأتباع. من أعمق أعماق بوتقة سنار الجديدة!

تلفت أبو لكيلك في فراغ الغرفة ذاتها. التي خرجت منها أخطر القرارات، لأكثر من عقد من الزّمان.. تلك القرارات، التي قذفت بشعبه إلى حالة من اليأس والبؤس الفريد؛ والقلق والتوتر العظيمين. وغيرّت من مصيرّه باتجاه آخر؛ أكثر غموضاً من آهاته الملتاعة!

عندما تولى أبو لكيلك زمام الأمور، في سنار الجديدة، كان مدفوعاً من العرافين، الذين أوهموه بأنه رجل ذو شأن عظيم! فقدر ثم قدر، ورأى أن من الحكمة أن يفعل بشعبه، كل ما يشير به العرافين.

وعندما حدثه عبد الجواد ود الباهي، نقلاً عن أحد العارفين بأسرار العرافين، الذين أحكموا الحصار حول أبولكيلك، لم يصدق عبد الجواد بل وانتهره، فخرج الأخير غاضباً، ومضى أبو لكيلك إلى كبير العرافين؛ يسرب إليه شكوك ود الباهي.

ولم تمض سوى أيام قليلة، حتى مات ود الباهى –أو قتل– وتكررت حالات الموت في ظروف غامضة، لكل من تشكك في عرافين أبو لكيلك. وأصبحت منذها مقولات العرافين، من ثوابت أبو لكيلك التي يصر عليها؛ في خطاباته الجماهيرية أكثر من العرافين أنفسهم! حتى شاع في سنار الجديدة القول في سخرية (التركي ولا المتورك) كناية عن المأزق الوجودي لأبي لكيلك، في تبني أمور غريبة؛ نيابةً عن أصحاب هذه الأمور!

ظهيرّة ذلك اليوم، الذي أفاق فيه أبولكيلك محاصراً بكوابيس اليقظة، التي اخترقت أحلام سنار، استعاد في ذاكرته عمليات السحق والتنكيل، التي قام بها ضد الجمعيات السرية –التي كانت علنية قبل توليه الحكم انقلاباً عليها– حتى لم يبق لها صدى!

كانت تقارير مخبريه مؤخراً، تؤكد أن زعماء الجمعيات السرية الهاربون، شمتانين في أبي لكيلك، وليس لديهم استعداد في إقالة عثرته، وتطييب خاطره في محنته الكبرى!

ظهيرّة ذلك اليوم هتف ابولكيلك –بعد اطلاعه على آخر التقارير– بحاشيته، التي كانت تتساءل باحساس ملؤه الذعر والخوف والترقب. سمَّي أبولكيلك وصلى، واستهل بثوابته المعتادّة؛ التي طالما حوّلت حنين أهل سنار إلي أسى، وحوّلت ذكريات اسلافهم، بكل الحكايا القديمّة إلي حرب ضارية، انتزعها أبولكيلك من قلب التأريخ، ليزرعها في حاضر سنار الجديدة. فاستحالت تلك الثوابت إلى كوابيس، اقلقت مضاجع عمال القصب (الكتكو)، والفحامة والرعاة والفلاحين البسطاء؛ في أقاصي البلاد ودوانيها. ولم تستثني الذين يعيشون على جني الثمار، ومطاردة الأرانب بالسفاريك!

كان كل من في القصر يتصبب عرقاً، عندما ختم أبولكيلك خطابه بـ:

"من أراد العودة فليغتسل بماء البحر، ومن أراد السلطة فليحمل السلاح لقتالنا"

وقتها، عباس السنجك همس لود القراي:

"أبولكيلك ما ناوي يجيبها البر!"

فهز الأخير رأسه وصمت مطرقاً بعيداً عن وجه آدمو، الذي غضنته الأوجاع التي صنعها أبولكيلك وجنكويزه في قومه.

كان آدمو قد أضمر لحظتها في نفسه شيئاً، لم تكشف عنه سوى وقائع الأحداث فيما بعد. إذ هرب في سرّيه تامة!

وبعد هروبه انتشرت البيانات والمنشورات السوداء، التي تحكي عن فساد عقل أبولكيلك وجنونه. والفساد في حاشيته واتباعه، ورغم أن هذه المنشورات لم تحمل توقيعاً محدداً، إلا أن أصابع الاتهام في أجهزة ابولكيلك الاستخبارية، أشارت كلها لآدمو..

وتناقلت سنار الجديدة في سرية تامة؛ أحد البيانات، التي لم يُكتب عليها ولا حرف واحد، فإماطة اللثام عن علاقة كبير العرافين الحميمة، باليانكي وربائبهم من جوار سنار، الطامعين في البلاد الكبيرة. لم تكن بالأمر الذي يحتاج إلى بيان!

لحظتها كان مفكري الدولة ومثقفيها ومبدعيها، قد أكملوا كتابة ملحمتهم الغامضة، التي لم تحمل سوى عبارة واحدة؛ على مدى عشرين ألف صفحة. ولم يتبرع أي من النقاد المزعومين، لشرح المحتوى المعرفي

والدلالي، لكلمات هذه الملحمة العظيمة، التي لم يطلع عليها أحد! رغم تساؤلاتهم المريرة!

ولأن أبولكيلك لا يهجسه سؤال، اكتفي باستحسان الملحمة، مدارياً جهله بعيون الشعر السناري العنيف، لكنه لم يتوانى في أن يعرض بعصاه ويرقص، ما دفع الخبثاء في الصفوف الخلفية للهمس والغمز واللمز فيما بينهم! بينما احتج آخرون:

"هتودونا في ستين داهية"

وتصدى جبر الدار ود تور شين للمسألة، فلاك لسانه وهمهم ودمدم؛ ولم يفهم أحد الحاضرين شيء سوى كلمة (جنكويز)؛ التي كان جبر الدار ود تورشين يدافع عنها!

لحظتها كانت قبيلة الجنكويز، التي ينتمي إليها أبو لكيلك. قد غادرت مضاربها إلى مكان غير معلوم، وأرسلت زعماءها إلى قصر أبو لكيلك؛ ذي القبة الخضراء؛ عند مقرن النيلين؛ في قلب سنار الجديدة.

كانوا يناقشون خططهم لحماية القبيلة، وحماية أبي لكيلك من أي هجومٍ محتمل! ويخططون لاستكمال خُطط العرافين، في حرق مزيد من القرى والفرقان؛ واغتصاب أكبر عدد من الفتيات والنساء، وقتل كل الرجال

والأطفال والشيوخ دون استثناء، فلطالما اعتقد أبو لكيلك أن اغتصاب نساء دار الريح يشرفهن بدمه الشريف! وهكذا عندما جلس أبولكيلك إليهم، أكد على خططهم الجهنمية!

كان أبولكيلك منذ طفولته الباكرة؛ كائناً متوحداً. يعشق العزلة؛ ويجنح إلى العنف، ولديه نزوع قوي للاقتياد، وذاكرة ذات قدرة فذّة على حفظ تعليمات العرافين وتنفيذها –في صالوناته الخاصة– إثر نجاح آدمو، في تصعيد وقائع السحل الذي تم لقومه، وتحريك هذه الوقائع المأساوية للضمير العالمى، أفاد أبو لكيلك أنه فعل ما فعل؛ ليس استجابة فقط لأوامر العرافين، فما دفعه لأعمال الإبادة الجماعية، هو أيضاً فتاوى علمائه، وتواطوء أجهزة إعلامه الرسالية، التي أكدت أن الاغتصاب من وسائل تحسين النوع، في بوتقة سنار الجديدة.

ظل الهدف الحقيقى لأبي لكيلك غامضاً. حتى عن أفكارّه الشخصية المضمرّة، وفي لحظات تجليه الخاص، عندما تتسرّب إليه حكايات الاغتصاب والقتل الجماعي وحرق القرى، كان دائماً يتسائل في سريرته "لماذا فعل ما فعل بإطلاق جنكويزه؛ لإشاعة كل هذا البؤس، الذي يهدد بقاء ووجود سنار ذاتها الآن!"

كان أبو لكيلك ينتج أفكارّه بطريقة عجيبة. ينفث ذلك النّوع من الدخان المخدر، الذي يتصاعد في قاع دماغه؛ متموجاً في دوائر حلزونية، ومن قلب هذه الدوائر؛ تتشكّل الأفكار التي سرعان ما يتلقفها الجنكويز، فيزرعون الرُّعب في تلك القرى النائية؛ للفلاحين والصيادين البسطاء، في أقصى حدود التاريخ المنسي للبلاد الكبيرة!

قال ود عطا الله، الذي حارب جده الكبير مع الإمام المهدي، وكافأه الخليفة بالموت من الجوع والعطش في سجن الساير.. أن أبو لكيلك يعاني من ضغوط عظيمة من اليانكي، الذين هددوه بالويل والثبور وعظائم الأمور، وجعلوه يرتجف فزعاً ويهتف بالتاية طوال الليل، مقطعاً النوم في عينيها!

حاولت إذاعة أبو لكيلك؛ أن تلطف من الشقاء والضجر؛ الذي اعترى حيّاة أبو لكيلك؛ فأعلنت عن بيان هام، استمعوا إليه في اهتمام؛ فشملهم ذعر وخوف مقيمين!

كان اليانكي يتدفقون من كل فج.. فكر محمد أحمد ود السرّة:

"لا بد أن أبو لكيلك الآن في محنة عظيمة الآن!"

ولحظة تلي وزير دفاع أبو لكيلك خلف الله الجنكويزي –الذي ينحدر والده من صلب أحد الأتراك في جيش الدفتردار– بيان التصدي لليانكي. كان أبو لكيلك شخصياً وقتها؛ يجتمع بسفير اليانكي. مؤكداً على فروض الولاء والطاعة! منذ استيلائه على السلطة من قبضة نبلاء علوة البائدة.

كان ود السرّة مثل أبو لكيلك، لا يعلم أن الأخير بتنفيذه لما يشير به كبير العرافين، إنما ينفذ خطة اليانكي المزدوجة لاحتلال البلاد الكبيرة! وعندما احتج أبو لكيلك في ذلك الاجتماع بخنوع، قمعه سفير اليانكي بقسوّة:

"نحن لم نقل لك ارتكب الفظائع"

كان أبو لكيلك قد أُسقط في يده، وتلفت حوله في غرفة الاجتماع، مسيطراً عليه احساس ضاري بالهروب الآن قبل أي وقت آخر!

القاهرة، 2004

مشاهد

سمراء اللون، معروقة الوجه.. سيمائها تُفصح عن ملامح القادمين من قلب المفاوز، بشعثهم وغبرتهم ورائحتهم الدبغة: التي يتقطر منها عرق الزحام.

كانت تقف بأناة وصبر، في البص الممتلئ عن آخره بالمتململين. شيء ما شدني إليها. أشحت برأسي متفادياً رائحة جاري الكريهة؛ وأنا أتمتم منكمشاً، فيما أغوص أكثر فأكثر أفتش في داخلي!

كان الوقت متأخراً عندما وصلت مدخل الحي. ذات الإحساس القديم بالخوف، ينبعث مرّة أخرى: يعيدني إلى تلك البلاد البعيدة، التي خلفتها ورائي..

كان الخوف من ظهوره المفاجئ –كالعادة– من أحد الأزقة الملتوية!

"ربما يكون مختبئاً الآن في مكان ما"..

غالباً يضطرني إلى العودة مبكراً، قبل أن تهدأ الحرّكة في الشوارع، وتخبو الحيّاة التي يحملها المارّة معهم، وهم يختبئون في شققهم الضيقة. فاضطر للتبكير في الحضور، أو تغيير الطريق.

اقتربت من العمارّة.. لم يتبق سوى لفة صغيرة، في الزقاق الأخير.. انحنيت معها و.. وفوجئت به في منتصف المسافة!.. تثلجت أطرافي وكدت أصرخ..

كان قلبي ينتفض بشدّة.. وفجأة على بُعد خطوات انحرف عني..

كانت صاحبته قد أتت تتهادى في مشيتها، فصرف اهتمامه إليها، ومضى يدنو منها متبختراً.. قرَّب رأسه منها، وهو يهز مؤخرته في حميمية..

توقفت أمام مدخل العمارّة متقطع الأنفاس. وعندما فتحت الباب تنفست الصعداء.. أخذت أراقبهما من موقعي الآمن.. وأنا أراه قد امتطى ظهرها و...

ومضى الوقت ثقيلاً ولا زلت في مكمني الآمن أراقبهما بحذر.. كان قد شرع في.. فسارعت ألتقط حجراً.. ووقفت في فوهة المدخل..

رميتهما.. حاول الفكاك منها.. التقطت حجراً ثانياً ورابعاً.. و.. دخلت الشقة متقطع الأنفاس. اخبرني رفيق سكني:

"هند اتصلت بك مراراً هذا المساء"

حانت مني التفاتة إلى الشاشة البلورية:

"خرجت ولم تعد"

تمعنت في الصورّة الفوتوغرافية جيداً.. كانت هي ذاتها تلك المصلوبة في البص.. أطل مشهد الكلب والكلبة وهما يعويان ويحاولان تفادي حجارتي.. كان وجهي قد خيّم على الحلم: أسمراً معروقاً.. تخدد بالغربة والحنين.

كوستي، 1993

الجلسة

ذات هيئتها القديمّة الجافة. لم تتغير مطلقاً.. سوى إضافات طفيفة! تبدت في شعثها؛ الذي يثير القلق والإحباط. انزلقت يدي على سطحها.. تبدو خشنة، متخشبة، لم تتغير مطلقاً.. "المعادلات ذاتها!.. برودها تجاهي؛ يشعرني بمدى سخف "أرقام" كثيرة؛ تظن نفسها شيئاً مهماً؛ في هذه الحيّاة البائسة".

في العام الفائت حسمتني اللعينة. لكن سأقرر حسمها هذا العام.. رُبما أتملقها وأتودد إليها إذا اقتضى الأمر! قليل من إذلال الذات لا يضير!.. لن أكون أول أو آخر متملق. كثيرون يفعلون ذلك، لست وحدي!

الوقحة تتحداني.. سأثبت لها أنني فحل لا يُشق له غبار! لكنها متمنعة.. حاول صديقي معاوية، أن يُعطيني انطباع أفضل عنها.. كان

يحبها وتنسجم معه. الوحيد في شلتنا كلها، الذي استطاع التمكن من قلبها البارد.

كثيراً ما اتهمنا أكثر عشاقها بأنهم أغبياء ولصوص. وفاخرنا أنها لم تستطع الوصول إلى عقل أحدنا. نعلم تماماً أننا كنا نخادع أنفسنا؛ حينما نبخس قدرها! ومعاوية يحكي عن الليالي التي يقضيها معها ساهرين يتناجيان في حميمية!

ذات مرة اعتبرناه سخيفاً.. مقتناه وطردناه.. عزلناه من الشلة لحين. لم يقوى على مفارقتنا فركع مستغفراً، واقسم أنه لن يتغزل فيها مرّة أخرى بحضورنا. رّقت قلوبنا لحاله –فنحن رقيقي الحاشية عادةً! –وهذا ما يجلب لنا المتاعب!

إذن اعتمدناه في الشلة مجدداً، لكن قيدنا اسمه بقلم الرصاص!

راودتني فكرّة مستميتة بالذهاب إلى النّهر. محاولة أخرى للهروب من التشتت في مسارب القلق. قذفت الكتب الدراسية كيفما اتفق، ويممت شطر النيل. حلّت فكرّة خبيثة محل الأولى: لم لا أذهب إلى كلتوم بائعة الشاي؟.. ستخفف عني احباطاتي قليلاً! وقد تكرر ذات حديث البارحة، فيما تسبل أهدابها على عينيها، التي تشبه عينا ضفدع عجوز

–فكلتوم كلها على بعضها، أشبه بسعلاة عانس!– وتدعى الحياء أمامي؛ وأنا أعلم أن هناك ما هو غير الشاى تبيعه. وأنها أقسمت على اصطياد، أي قرش يتحاوم في الشارع.. والذي لا تعلمه، أن جيوبي لا شيء فيها سوى نسيج العنكبوت..

إذن لم تستمر هذه الفكرة طويلاً. فقد قفز إلى ذهنى التعجيل بالذهاب إلى البيت. لكن.. اللعنة.. سيُطرق الباب وتصرخ أمي:

"ما سامع الباب يا ولد؟"

أمي لا تريد أن تقتنع أنني كبرت كثيراً ولم أعد ولداً.. ويبكي ابن أختي الصغير، فتنهرني:

"سكِت الولد"

وحين يرفض ابن أخي الذهاب إلى الدكان تصيح بي:

"ما شايف ود أخوك ده؟"

اللعنة تحول بيتنا إلى روضة أطفال.. يتزوجون ويرمون بلاويهم علينا. لا نراهم إلا في الضراء والسراء.. وسأكرر ذات السؤال اليومي:

"من الذي أخذ القلم والأوراق من هنا؟"

وكما هي العادة يتواطأ الجميع بالصمت. وإن أُضطررت لمعاقبة الأطفال. فهذا يعني أنني فتحت باباً لا قبل لي بسده!

ستحاول جَدتي تهدئتي وتحدثني عن زمن الترماي والتعريفة والحياة الرّخوة. ستحكي عن الخواجات والمأمور وناظر المحطة. وتتمتم:

"زمنكم كعب يا ولدي.. حليل زمنا انتو مظلومين.. ما حضرتو شي"..

وسأقف أمام أبي وأخاطب وقاره بهدوء.. وسيقول لي:

"الظروف صعبة الأيام دي. اركب قدميك. لا داعي للمواصلات إلى أن تُفرج"

وأنا أعلم أنها لن تُفرج!..

وعندما أحضر ظهراً سأجد الغداء كالعادة (ثخينة) وأفضل الإيمان أم رقيقة.. وعندما يأتي المساء تتشاجر أمي مع أبي.. لا بل سيتعاركان. فدائماً تقرع هي طبول الحرب أولاً.. وسيشاركها سلاح الموسيقى (أحفادها) حتى يتبين الخيط القرمزي من البنفسجي.. فيهدأ الصراخ.. واكتشف أنني لم أذاكر شيئاً ولم أنم.. فانهض لأبحث عن دفاتري القديمّة، وكتبي مملؤاً بهموم يوم لا ينتهي على خير بالتأكيد!..

هذه هي حياتي! يا له من برنامج ممل وقاتل! يبدو أن فكرّة الانتحار ستأخذ حيزاً جيداً في نفسي!

معاوية لم يعد هذه الأيام يخشى أن نمسح اسمه من الشلة، إذ بات يحدثني بهُيام عن تلك المتباعدة، متجاوزاً الخطوط الحمراء!.. قلت في نفسي لأحاول التجاوب معها.. كثيراً ما أقول ذلك لكن عُقدة كرامتي التي اهدرتها العام الفائت، تقف حائلاً دون ذلك.. سأحاول هذه المرّة التجاوب معها، علها تتنازل عن موقفها مني!..

الحقيقة أنها تستغل سياسة ضبط النفس، التي ظللت انتهجها!.. أمسكت بها مقلباً إحساسي على صفحتها. كانت كعادتها باردة. حاولت اقتحامها بكل عقلي. لم يجدي أسلوب التنويم المغناطيسي هذا نفعاً.. إنها لا تتعاطف معي.. أترى نزوة قد نبتت ذات ظلام تملكتني؟!

المسألة مسألة كرامة ومبدأ، هذا كل ما في الأمر ببساطة.. حاولت معها مرّةً أخرى. شعرت بها تطأ كبريائي وتُريق ماء وجهي. أحسست بأنني فاشل! يبدو أنها ستحسمني هذا العام أيضاً!

السنة الماضية أهملتها عُنوّة. لم أُعرها انتباهاً وتبجحت كثيراً، حتى لا أُتهم بالغباء. فالحقيقة أنني لم أُهملها تماماً. إذ نجح صديقي معاوية، أن

يجعلني أتعاطف معها هذه المرّة. لا بل أنني أقول ذلك إرضاءً لغروري الذكوري. فالغبي لو نجح في إقناعي أنها الأقوى، لما أبديت تعاطفاً.. مع أنها في واقع الأمر في الموقع الأقوى، كما أن توازن القوى لم يكن لصالحي يوماً.. ثم أن الوزارة بقضها وقضيضها معها.. وأنا (ابطى والنجم) كما يقول المثل.. إذن لنقل إنه إرضاءً لغروري أنه أقنعني.. سأحاول إذن التقرب إليها مرّة أخرى، علها تجبر بخاطري!

تلمست ساعديها.. خيم الصّمت على كلانا قلت "لأحللها" ثم "أحصي" لها ما بداخلي من مشاعر "مكعبة ومثلثة" وليتني لم أُلامس "دائرتها" إذ أشاحت بوجهها بعيداً.. يبدو أن محاولاتي اليائسة لم تنطل عليها.. فهي تعلم تماماً أنني أُفضل ابتلاع الجمر على المحاولة معها!

أخلى لنا معاوية الغرفة.. تركنا وحدنا. نظرت إليها بتهيب. وضعت الكرسي على المخدّة.. ما بالي أبدو مرتبكاً.. أقصد المخدة على الكرسي. قلت هكذا سيكون الأمر معها.. ألا أبدو مرتبكاً؟!.. وضعت الكرسي على مؤخرتي.. المضامين البديعة اختفت هذه الأيام!

كان الجو مهيئاً، فالثقب المتسع في سقف السماء، يبدو عليه الامتلاء بماء البحر والغيم.. تلاشت حرارة النهار الصاعقة تلك. اختفي الناموس واكتسى الليل بهواء عليل. لكن.. انقطع التيار الكهربائي..

لكم أكره الظلام.. بدأ ضوء الجسم الأسطواني الأبيض يتراقص على صفحتها.. أحسست بهما يتعانقان.. يذوبان في قاع الذاكرة.. لم أعد أتذكر شيئاً.. قلت لأحاول مرّة أخرى، لكن كان ذلك صعباً فقد تداخلت بجسمها "المنحني" في "احداثيات" الهالة الضوئية..

اخترق سكون الصمت دخول معاوية:

"ها.. حسمتها؟"

"ليس بعد"

"لكن تبقى وقت قليل للامتحان.. أخشى أن تحسمك كالعام الفائت!"

"سأحسمها"

"غداً لناظره قريب!"

وخرج معاوية ليواصل مذاكرته في الغرفة الأخرى.. حاولت معاودة الكرة، لم تعرني بالاً.. أُصبت بنكسة عميقة الجرح في داخلي.. هزمتني.. محاولاتي البائسة لم تجد نفعاً. والامتحانات على الأبواب. أغلقت كتابها. وأقسمت ألا أفتحه أبداً:

”الرياضيات اللعينة.. لقد ذهبت محاولاتي معها أدراج الرياح!“

الخرطوم، 1993

كائنات ود البدوي العجيبة

وقالت شهرزاد لشهريار: (بلغني أن ود البدوي ككائن جميل، في لحظة من لحظات التجلي النادرة.. إثر ليلة عارمة الخمر، مشبعة بالنيكوتين، أبت نفسه إلا أن يهتف بسقوط الحبيبات الأوانس والعوانس، من شاكلة عاشقات النرجس والياسمين.. والبنفسج..)..

ارتفع حاجبا شهريار. ثم انحنى عليها ومال. فتهشمت أغصان شجرة "الجُهنمية الحمراء" في باحة الدار! وعلا هديل قمرية مغناج في دلال. فتنهدت شهرزاد، وهي تسوي من شأن فستانها الذي بلله الندى، وتسكب رضاباً من قارورة عطرها السحري، يبدد زنخ الحكايا!

قالت: (.. وكلف ذلك الهتاف ود البدوي، الطرد من حظيرة الشلة، دون أدنى إحساس بالبطولة. فالتقى كائناته العجيبة ليتماسك من هول الصفعة..)..

اتسعت عينا شهريار: (كائناته؟!)

"نعم. نعم.. الكائن الأول: هو جابر الأعوج.. شخص فصامي، مجرثم بالقلق والتوتر. شبق لدرجة أنه تجرأ ذات يوم واستخدم اللغة الحافة، في إحدى الغابات. لحظة أدهشته كائنة مستبدة كالصحراء!

وإذ قمعته اضطر في ذلك اليوم لإحضار جوال من البلح، وعُلبتين من الخميرة المستوردة، ليداري جوعه ووجعه وهزيمته الفادحة!

– الكائن الثاني: رمضان القصير. وهو مثقف متحذلق سليم الطوايا. صافي السريرة تجاه كل ما هو رّيفي. علاقته بذاكرة المدينة يشوبها الغموض والاكفهرار والحذر!

أما ثالثة الأثافي فهو المدعو: وليد جني وتلك الكائنة التي يقال —— والعهدة على ود البدوي—— أنها حفيدة لأحد المردة، الذين حبسهم سليمان في (سواجن) جهة بحر مالح الملون، ولكن لخطأ في التحولات الجغرافية، ونتيجة للحركة التكتونية لطبقات الأرض. حدث انتقال من الشرق إلى الجزيرة! إذ فوجئ الناس ذات صباح حذر ب "قُلة" —— زعموا فيما بعد انتمائها لما بعد عصر النياندرتال بقليل—— عندما فضوا ختمها فوجئوا بالجد الذي تنتسب إليه هذه "الكائنة ——التي تشيع الفوضى أينما حلت—— والتي لا تخشى في بعثرة الأشياء وقلبها رأساً على عُقب لومة لائم!

كانت أيقونة الشلة وقهوتها وسكرها. الجميع بلا استثناء يحبونها دون أن يصرحوا، ويتسابقون في تدليلها. وكانت هي تعرف مقدار حب كل فرد من أفراد الشلة لها. فمنحت نفسها صلاحيات طرد أي حبيبة محتملة، لأي فرد من أفراد الشلة! احتكرت الجميع دون أن ترتبط بأحدهم! أو تدع أحدهم يرتبط بأخرى!

وإحدى غلطات الكائن الأول، أنه تحرش بها نهاراً جهاراً. على الرغم من إن تحرشه بها أسعدها، إلا أنها فضحته في الشلة، وتمادت ففضحته في القبل الأربعة. وعلى الرُغم من أنه أخفي وقائع هذا الاحتكاك غير محسوب العواقب، وتكتم على نتائجه المخجلة، إلا أن دلائل المأساة والتأزم هدمت سياج الآلام السرية، الذي ضربه حول نفسه!

ما أثار الريبة انصرافه الواضح ـــوقتهاـــ للغوص في داخله، وتجنب سماع وترديد تلك الأغنيات العارية، التي لطالما أدمن سماعها. أصبح لا يبالي بالمثاقفات حوله؛ التي كانت تدينها بقسوة دون ضمير!

ولاحظ الجميع ـــوقتهاـــ تجنبه النظر للسيقان الممتلئة، التي لا تفتأ تعبر أمام الشلة دون رّحمة! وتفاديه الصارم مغازلة المؤخرات العابرة، التي تحملها هذه السيقان المدمرة!

ما حدا بخبراء الشلة الاستراتيجيين، التأكيد بأنها محاولة بائسة للتماسك النفسي والتوازن، ومداراة الهزائم المتكررة –التي لم يعد يقوى على احتمالها– في مواجهة النساء من جنس السلحدارية!

والسلحدارية كانت هي الكائنة الخامسة في شلة ود البدوي العجيبة. وهي: فتاة من غير هذا الزمان. تجهل الأشياء التي تعرفها حتى راعيات الضأن في الانقسنا! وتجيد تفصيل البراءة المزيج، في الأرستقراطية التركية العريقة على مقاسها. لكنها مع ذلك كانت رقيقة ولطيفة. لم تصادف الكائنات سالفة الذكر مثلها في حياتها المثقلة بالمرارات. كصفحة بيضاء حد الفجيعة، تخط عليها الكائنات مداعبتها السمجة، وغزلها المحموم. ما يثير حفيظة الراوي، ويشعل نيران الغيرّة في قلب الكائن الأول. المكابد لأشواق عدّة.

وأثر الحركة التفاعلية في مجال الكائنات، انتقلت للسلحدارية عدوى الهواجس والظنون والتأزمات والمثاقفات الجريئة، مع شيء من القلق والتوتر اللازمين لمجال الكائنات. خاصة بعد أن غيروا اسمها وأطلقوا عليها اسم "شهرزاد" تعبيراً عن هوياتهم المحتجزة.

فأصبحت السلحدارية بذلك تجتر حزناً قديماً، كالذي يثير أشجان أطفال اليسار، ويدفعهم للنضال بالكمنجات والكورال، حتى تتقطع

أوتار الذكريات وأوصال الأحلام، ويتحول كل شيء إلى أشلاء نبيلة ـــيغنونها في ذلك النوع من أغنيات الحزن الغامض، الذي أعاق حركة الثورة والنضال! إذ يجهشون بالبكاء وترمي مناضلاتهم الجسورات "باللبان" الذي يعلكنه. وينكفئن في مشاهد نضالية مهيبة لا تقوى الكمنجات ولا الكورالات على التعبير عنها!

قال الراوي: المدهش في الأمر، أن السلحدارية هذه. تكونت لديها هواية مدهشة في حفظ الأشعار المأساوية والأغاني الفاجعة. ما أثار إعجاب أرباع المثقفين وإنصافهم. والمناضلين المزعومين، المملين. ممن يمشي منهم على بطنه أو على أربع –كما أكد ود البدوي– أنهم "سلطوا" عليها أحد صغارهم اليافعين، من ذوي الوسامة والجمال؛ ليصطادها على حين غرّة.

السلحدارية هذه بعد أن تخرج أفراد الشلة من الجامعة، وتفرقت بهم سُبُل الحيّاة، تزوجت وطورّت في عزلتها، شخصية لا يمكن لكائنات ود البدوي في متاهاتها، أن تتصور ما أصبحت عليه.

لقد شعرت فائقة الجمال السلحدارية بالملل، من سذاجة ابن عمها! الذي أخيرا رضخت لرغبة أهلها وتزوجته.

كان رجلاً متقداً، وجميلاً، وحاد الذكاء، إلا أن الحيّاة معه كانت مختلفة.. تفتقر لبريق وحيوية شلة "الكائنات العجيبة" التي اعتادتها، ولذلك كانت تتمنع عليه كلما تقرب منها، وتقسو عليه كلما فاض به الكيل.

ثم استنزفته ولم تترك له قرشاً واحداً يقي به نفسه من نائبات الأيام. كانت تجلده بكلماتها الجارحة وتذله، وتحمله في دخيلتها هدم عالم شلتها، مملكتها!

وعندما تفيض بها الرّغبة، تمارس معه الجنس بشروط قاسية، وعندما ملّت حياتها معه بعد سنوات قليلة، قررت أن تطرده من حيّاتها. بالطبع حكت عكس ذلك، لود البدوي عندما التقته مصادفة، بعد سنوات أثناء تجواله مع طفله في أحد الأسواق.

وكان ود البدوي يعلم أنها كعادتها تحاول أن تظهر بصورّة جيدة أمام الشلة". فقد كان ود البدوي في تلك اللحظة، بمثابة الشلة نفسها. وكأن تلك اللحظة من الزّمن التي التقيا فيها اختزلت التاريخ كله، في لحظة ماضية.

كأنهم لا زالوا تلك الشلة، التي تتحلق حول ست الشاي داخل سور الجامعة. تبددت كل السنوات التي تلت التخرج؛ دون أن ينتبه كلاهما!

قال الراوي: عندما تجد ود البدوي، يتوسط كائناته كعمدة مهيب، يتلقى شكاوى مواطنيه المزعجين –الذين يظنون أنفسهم شيئاً مهماً في هذه الحياة– في تؤدة وصبر، محتملاً سخافاتهم السرية والمعلنة. تكتنفك هالة من الإحباط و"الدبرسة" التي لا تجد طريقها إلى معنويات ود البدوي أبداً!..

فقد ورث "طولة البال" عن جده الكبير. الذي قطع الفيافي والقفار، ليحط رحاله هنا بالتحديد، لاعتقاده أنه سيولد له حفيد يكون له شأن عظيم!..

ولا أحد يدري من أين تسرّب إليه هذا الاعتقاد الخفي، ولكن أياً كان الأمر، فقد استمر المحتوى المعرفي لعبارة: "شأن عظيم" غامضاً و مؤرقاً لأسلاف البدوي لعدة قرون!..

إلى أن ظهر في سلالة ذلك الجد الكائن المدهش: ود البدوي، فغطى بقلبه فضاء الكائنات وأعاد إلى الأذهان تأويل تلك النبؤة، وما ظنه من فحواها!

وإثر خلاف بينه وبين كائنته المفضلة، التي لا يعرف عنها أحد شيئاً – لتأمينه العالي كزميل ورفيق قديم، لا تزال ذكرى البلاشفة والمناشفة، والمنشقين، في مشارق الأرض ومغاربها، تؤرقه ـــاندفع تجاه الطرف الغربي للمدينة، وبكى كما لم تبكي السماء في عهد نوح.

يشير المؤرخون بعد عشرات السنوات القادمة، أن النيل فاض واتكأ، حتى تكون له فرع بهذا المكان القردود، أطلق عليه الأهالي اسم "بحر السماحة"، فاستغلت تلك الكائنة المستبدة الفرصة، وفرضت عليه حصارها. ما جعله يهرول إلى الراوي متشكياً.. ود البدوي يقع الآن خلف كمبيوتر من جيل منقرض، يراسل أصدقاء لا يردون عليه. ويتصور حبيبة "حُلُم". ويشرب في اليوم قهوة تكفي لأسبوع. وسجائر تكفي لشهر. ويحتمل التفافات زميلته العانس في المكتب. ووجه رئيسه الكوري القميء برائحته الكورية الغريبة. ثم يحمل عذاباته ويمضي إلى كائناته، فتداهمه السلحدارية بأزمتها الدورية، إذ يصر أهلها على تزويجها من ابن عمها.. فيصمت ود البدوي لفترة، يخالها المتحلقين حوله دهراً –فترة كافية لإثارة قلق الراوي، وتحقيقات المؤرخين على وجه الخصوص– إذ يخطر على بالهم، انه صمت يرتبط بتلك النبوءة المزعومة، للجد الذي جاب الفيافي والقفار، وقطع السباسب والوهاد، ولم يترك مسلكاً إلا عبره. يسامر النفس في السرى، بحكايات ألف ليلة.

ويحلم بحفيد يكون له "شأن" يصمت صمتاً وقوراً كهذا الصمت، ليضفي على نفسه نوع من الهيبة المقدسة!

ولا يطمئن الراوي، إلا بعد أن ينسجم ود البدوي مع ما تسميه الكائنات "إشكالات الراهن" و "مواضعات الواقع" واضعين الأمور – أي أمور مهما كانت تفاهتها– موضع مساءلة! يفرغون أزماتهم وتأزماتهم، التي لا تنتهي بالتناوب؛ إلى أن تسكت شهرزاد عن الكلام المباح...

الخرطوم 1997

شهادات كتاب عرب في ملتقى الكتاب والمبدعين العرب الاسفيري وموقع القصة العربية

- لحروفك رائحة لا تشبه أحداً، صدقني.

قرأتك ملياً ملياً ملياً، أنت قاص من طراز مختلف جداً.

الروائي العراقي صفوق الدوغان

- كلمات، صور شاعرية محلقة متقنة الجمال

والألم. مرحباً بفصولك التأملية.. العنوان كان فخي (تأملات شتوية) فدخلت واصطادتني القصة بجمالها.. بلغتها.. أحببتها جداً وصفقت لك ولصورك وتشبيهاتك المحترفة.. الفن والشعر.. تنفست الصعداء وكأني من كتبها.. تأملات شاعرية، فلسفية.. رؤيا جميلة ممتعة.

القاصة السورية ميساء العباس

- تأملات شتوية راقية بلغة رائعة.. تلك

الوريقات التي خُطت في الشتاء لنحتفظ بها بيننا.. برائحة الجمال فيها– جوري لروحك.

القاصة المصرية سمية الألفي

- نفسك طويل ومتمكن من حالة التأملات

الشتوية هذه.. هنا كان النص قوياً وملامساً للقلب.. أحببتها كثيراً، رُبما لحبي لفصل الشتاء رغم شكله وبرودته.. هذا النص من أجمل النصوص ويستحق الذهبية بجدارة..

القاص المصري محمد سلطان

- أنت كاتب رائع ولك بصمة كبيرة وفلسفة

خاصة متفردة. تأملات شتوية نص رائع ومبهر.. أراك قد وظفت جميع الأدباء والممثلين في طابور اصطكاك!! توظيف رائع خدم فكرة كوننا مصطكون وأن أميركا لا تأبه بذلك وأن فيتنام انتصرت فعلاً عليها لكن ذلك لا يهم.. الحقيقة أننا مصطكون و أننا نجابه قصار قامة أو (أقل

منا مقدرة) كي ننفس عن غضبنا و و.. نص جميل وسرد أجمل لم يخلو من روح الدعابة الخفية!

القاصة العراقية عائدة محمد نادر

- المعرفة هي جوهر الحياة، فلا خلود دون

معرفة! أنا أمام قصة من الدرجة الأولى وأشاطر القاص ربيع عقب الباب الرأي، في أن هذا النص يحمل بذرة رواية رائعة. أحببت اللغة هنا وهذا الوصف الجميل لشتاء بارد خارجاً، ربما يقابله شتاء أشد قسوة في ذاكرة وقلب البطل.

تعجبني النصوص التي تشاغب فكري وتجبرني على التأملات دون أن أحس بقلق الغموض والانزياحات. نص رائع.

كذلك، دخلت نصك (في شرخ المشروح) أكثر من مرّة، وفي كل مرّة تصطك أفكاري وأخرج من القراءة دون أن أدرك جوهر الاصطكاك مع أنك شرحت المشروح، أم تراك شرختَه؟

خلاصة القول السردي، أننا كلنا مصطكون في عالم مصطك هو الآخر! نص رائع يُحيي في الروح موات الشجن والحنين!

أجد في قراءة نصوصك متعة خاصة.. زخم الأفكار وقوة اللغة وقدرة مبهرة على الوصف.

القاصة الجزائرية آسيا رحاحليه

- تداعيات شتوية، نص لا يكتبه سوى مبدع

مفكر.. نص جيد في ثوبه السردي، تبدو ثقافتك الموسوعية على سطحه بوضوح.. نص يشرح لنا ويوضح كثيراً من المعاني. ويأخذنا إلى عوالم شتى، ليصل بنا إلى فكرة ثابتة. أنه نص يعكس تجربة قوية ورؤية واضحة.

القاص المصري إيهاب فاروق حسني

- هل كانت هذه التأملات الشتوية سراً من

تلك الأسرار التي كانت تضج بها حلقات الرفاق في زمن عنوانه التغيير؟ هل هي استذكار لمسار الانحدار نحو الهاوية فيما الأحلام تتصاعد في أطوار يوتيوبية؟ قصة أحسست من منفاها لهيب الاحتراق! والمبدع من خلالها يروم اعطائنا هامشاً صغيراً بروائح تحفزنا لفض بكارّة الخلل مع

هتكها! تأملات شتوية سهام نارية تضرب العقول المناضلة فتشل أعصابها وتعانق الكؤوس!

القاص المغربي دريسي مولاي عبد الرحمان

قلم مميز، أسلوب رائع جداً.. سوف أتابع كل جديدك. أنت تستحق الأفضل.

القاصة السعودية وفاء الدوسري

- **مزامير خديجة، نص ملفت. توقفت عنده**

كثيراً. الأفكار المطروحة فيه تعكس شخصية مثقفة تملؤها هواجس الوطن على كثير من النظرة المسؤولة البعيدة، أتمنى أن أقرأ لك الكثير. أحسست بتميزك، وروعة وعمق أفكارك.

ما أصعب الزمان عندما يقف خلف نافذة للشجن ونافذة الحنين! إنه يختزل مشاهد وجد على امتداد العمر..

القاصة السورية إيمان الدرع

- **لعل ما يميز معظم الأعمال التي قرأتها**

للقاص أحمد ضحية هو استخدامه للرمز والأسطورة بصورة مكثّفة. والوطن والسياسة –في ظني– متلازمتان ولا ينفكان عندما يمسك هذا القاص قلمه ويبدأ في الكتابة.

و في هذه القصة "التقرير الأخير حول محنة أبو لكيلك الجنكويزي" يبدو واضحاً الوطن و مأساته من خلال شخوص القصة و ذلك الصراع الدائر بين هذه الشخوص ما هو إلا تجسيد للصراع و الحروب الأهلية.

وقد ظلت هذه القصة –رغم استخدام القاص للرموز– خطاباً وبياناً سياسياً مفتوحاً –على الأقل بالنسبة لنا نحن السودانيين المهمومين والمنكوين بنار الوطن ومشاكله وساسته.

وما استدعاء مفردات مثل(الجنكويز) و(سنار) و(آدمو) و(أبو لكيلك)، إلا دلالة على ذاك الهم الذي أشرت إليه.

ولعل تناقض الخطاب السياسي وجهر قادتنا بخلاف ما يبطنون، هو ما أشار إليه القاص و ضرب عليه بقوة في نهاية القصة عند إعلان وزير دفاع أبو لكيلك بيان التصدي لليانكي.

في نفس الوقت الذي كان رئيسه أبو لكيلك يجتمع بسفير اليانكي ليؤكد فروض الولاء و الطاعة!

القاص السوداني هاشم بانقا الريح

- هذه الأغنية (أغنية لطائر الحب والمطر)

بعتبة وقف عليها رمز نبي الله سليمان وهو مستند على عصاه التي أكلتها الأرضة في رمز موت الرجل دون شعور الآخرين به!

هذا الموت موت رمزي أيضاً.. موت يتجسد في عدم اتصاله بالآخر.. موت بانعزاله عن (إيمي) هذا الموت دب فيه الحياة بإنقاذ الآخر وتطييره المتجسد في جناحي (القمرية) رغم تضاؤلها في الفضاء! الحياة تدب بدبيب المرء على الأرض.. بسقوط حبات المطر.. وبالسير في الطرقات نحو خاتمة النص، التي غرد فيها القُمري على أغصان الشجر لخاتمة لحنتها أنامل السماء بمعزوفة مطرية.. (واحتوانا الطريق...)

القاص العراقي محمد البشير

- **يقول لي الاسم (تأملات شتوية) شيئا ما**

حدث، كما يمرّ أي فعل في الزمان ويدخل عتمة الماضي لكن نصا كهذا لا يمكن أن يمرّ كما حصل مع الاسم. نص فاتن بأسلوبه ولغته الرقيقة النابعة من الوجدان.. أوقعني النص في حبال سحره وصدقه، أنا فعلا سعيدة بالقراءة لك.

القاصة التونسية صالحة غرس الله.

- **القاص المبدع احمد ضحية لعلها الخرافة**

داخلنا في تمازجها مع الواقع البائس. وقد أجدت ببراعة القاص والرسام معاً أن تخبرنا بالحكاية في (تجلياتها) وتعقيداتها مع الغربة ومرارة الواقع. والحب الذي يثير الغضب والكراهية.

استمتعت بالنص، وقدرتك الفائقة على الحكي ودمت مبدعا متالقاً.

القاص المصري د. أحمد البسوسي

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء.. 6

تداع 7

توطئة.. 8

ربيع عقب الباب.. 16

كلمة لابد منها 18

تداعيات شتوية 20

اصطكاك في شَرخِ المشروح.. 33
أصدقاء 45
لاجئ 47
أطفال..... 49
نوبل 50
حالة جذب..... 52
مزامير خديجة 58
تجليات الميرم كلتوم..... 68
أُغنية لطائرِ الحب والمطر..... 82
النَّوة 90
حب 97
التقرير الأخير حول محنة أبو لكيلك الجنكويزي 102
مشاهد.....122

الجلسة 125
كائنات ود البدوي العجيبة 133
شهادات كتاب عرب في ملتقى الكتاب والمبدعين العرب الاسفيري
وموقع القصة العربية..... 142

من الكتاب:

هل كانت هذه التأملات الشتوية سرًّا من تلك الأسرار التي كانت تضج بها حلقات الرفاق في زمن عنوانه التغيير؟
هل هي استذكار لمسار الانحدار نحو الهاوية، فيما الأحلام تتصاعد في أطوار يوتيوبية؟ قصة أحسست من منفاها لهيب الاحتراق! والمبدع من خلالها يروم إعطاءنت هامشاً صغيراً بروائح تحفزنا لفض بكارّة الخلل مع هتكها!
تأملات شتوية سهام نارية تضرب العقول المناضلة فتشل أعصابها وتعانق الكؤوس!

Bassmabook
0021277181493
Contact@darbassma.net